الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين

٥

العزيز بالله

تأليف: الدكتور عارف تامر

دار دمشق
دار الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

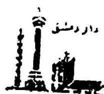
الخليفة الخامس:

العزيز بالله



تأليف

عارف تامر
دكتور في الآداب



دار
الجيل

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م ــ ١٤٠٠ هـ

الخليفة الفاطمي الخامس
العزيز بالله

اسمه: العزيز بالله . لقبه: نزار . كنيته: أبو المنصور. ولد سنة ٣٤٤هـ. بمدينة المنصوريّة المغربيّة . وقدم مع والده المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ. سمي وليّـاً للعهد عقب وفاة شقيقه الأكبر «عبد الله» . وتسلّم الخلافة بعد وفاة والده المعز سنة ٣٦٥ هـ . وكان له من العمر ٢١ عاماً . توفي في بلبيس سنة ٣٨٦هـ. بينما كان في طريقه إلى الشام على رأس حملة لمحاربة الروم وكان له من العمر ٤٢ عاماً . دفن على مقربة من والده في إحدى حجرات القصر الشرقي في القاهرة المعزيّة .

عُرف بسعة اطلاعه ، ووفرة مداركه ، وثقافته الواسعة ، وكان يجيد عدة لغات أجنبية ومنها : التركية ، والكردية ،

والرومية ، وكان أديباً ، وخطيباً ، وشاعراً . وفارساً يضرب به المثل ، ويشهد له الفرسان المجربين .

ذكرت المصادر الفاطمية :

بأن العزيز بالله تثقَّف على أيدي جماعة من الرهبان النصارى (القُبط) الذين اختارهم والده للاشراف على تربيته وتثقيفه بعد وصوله إلى مصر ، لهذا علينا أن لا نعجب إذا ما رأينا ثقافته قد اكتملت في كافة مجالات العلوم ، والآداب ، والفنون ، ولعلّ هذه التربية أثرت عليه ، وجعلته يولي النصارى عطفه ومحبته ، فيسلِّم إلى بعض أقطابهم المناصب العليا في الدولة ، ومنهم « عيسى بن نسطورس » الذي لعب دوراً كبيراً في سياسة الدولة الفاطمية الداخلية والخارجية ، ومن جهة ثانية فإن زواجه المبكِّر من فتاة نصرانية هي شقيقة بطرك النصارى في مصر ، وهي التي أنجبت له « الحاكم بأمر الله » الخليفة السادس ، و « ست الملك » ، لدليل واضح على تأثره بأفكار أساتذته الذين تلقى علومه العليا على أيديهم .

كان العزيز بالله مولعاً بالصيد ، ويولي الأعمال الرياضية اهتمامه ، كالسباحة وركوب الخيل والرماية ، وذكر أنه كان يذهب برحلات بعيدة لاقتناص الأسود في أغوار فلسطين ،

وبلاد النوبة . وقدّر عدد السباع الذين اقتنصهم بخمسين أسداً ، وذكر التاريخ أيضاً :

بأنه كان خبيراً بالمجوهرات وأنواعها . وبالأحجار الكريمة وأجناسها ، ومصدرها ، ومواضع وجودها ، ويجب أن لا ننسى ما ذكر عنه : بأنه كان كريم اليد ، متواضع ، وطيّب القلب ، يحب العفو عند المقدرة ويفضل السلام إذا كان بالإمكان الاستعاضة به عن الحرب ، وسفك الدماء . أما ولعه بالبناء والتشييد والتنظيم فلا يسبقه أحد في هذا المجال . ولعلّ الآثار التي تركها في القاهرة خير ناطق وشاهد ، وعند الحديث عن البناء والعمران ، لا بد من القول :

بأنه بنى « القصر الغربي » وكان يقع غربي « القصر الشرقي » في المكان المعروف اليوم بخان الخايلي . ومسجد الحسين ، أما الغربي فمكانه كان في سوق النحاسين . وجامع قلاوون . وقد جعل بين القصرين الشرقي والغربي ساحة للعرض ولتدريب الجنود كانت تدعى « ما بين القصرين » . وبنى قصراً في عين شمس سمّاه « قصر البحر » الذي قال عنه ابن خلكان :

لا يوجد له شبيه في الشرق . ولا في الغرب . ولكنه عرف أنه لم يكمله ، فأتمّه ابنه الحاكم بأمر الله . وبنى مسجد الحاكم سنة ٣٧٠هـ . ولم يكمله ، فأتمه أيضاً ابنه الحاكم بأمر الله ،

كما أقام في جامع عمرو منبراً كان آية في الروعة ، وفي عهده حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة ، وجعل وزيره الأول يعقوب بن كلس مشرفاً عليها ، وفي عهده أشادت والدته السيدة « تغريد » مسجداً عظيماً في القرافه ، وجعلت إلى جانبه قصراً فخماً أحاطته بحديقة غناء وبستان جميل ، وأنشأت فيه حمّاماً وبئراً ، ويروى :

انها أحضرت لنقشه وزخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، وكان مربع الزوايا ، في جوانبه أروقة كالأزهر منقوشة نقشاً في غاية الروعة والإبداع ، أمّا بابه فكان ذا مصطبـــة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحاً بالحديد ، أما المقصورة فيدخل إليها من أربعة عشر باباً مربعةّ أمام كل باب قنطرة مقوّسة على عمود من الرخام في ثلاثة صفوف وكانت الأبواب مجوّفة ، ومدهونة بالأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، كما كانت السقوف ملوّنة بمختلف الألوان، وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ملوّنة بألوان مختلفة يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبيعياً ، أمّا القصر فيتصل بالبستان الجميل . وفيه حمّام وبئر كما ذكرنا ، وكان الناس يترددون عليه للنزهة ، والراحة ، وفيه قنطرة مقامة على قبو كثيراً ما يستظل به المسافرون .

الجيش والاسطول
والعزيز :

أدرك الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله . كما أدرك آباؤه ، وأجداده من قبل بأن الجيش هو العمود الفقري للدولة ، وأن الأسطول من أهم مقوماتها خاصة إذا كانت بعض بلدان الدولة تقع على شواطيء البحار . ولهذا وضع أمام أنظاره بمجرد أن تسلّم منصب الخلافة ، مبدأ الاعتماد على هذين العنصرين ، فولّى الجيش عنايته ، وجعله موضع اهتمامه وتفكيره ، لأنّ هذا الجيش هو الذي يتولّى حماية حدود الدولة ، وهو الذي يؤمن لها امتداد نفوذها في المشرق والمغرب ، ولم ينسَ الأسطول البحري ، وكأني به لم يرض بما أدخله عليه والده المعز لدين الله من إصلاحات ، فأراد من جهته أن يجعله الأسطول الأول في العالم في ذلك الوقت .

أجل . . . لقد قسّم العزيز بالله الجيش الفاطمي إلى كتائب

وفرق نظامية كان لكل منها قيادة خاصة مرتبطة بالقيادة العامة ، وأدخل إلى صفوفه عناصر من الأتراك ، والأكراد والديلم ، وأطلق عليهم مجتمعين اسم : الجيش الشرقي ، أمّا الجيش الغربي فكان مؤلفاً من قبائل كتامة ، وصنهاجة ، وزويلة ، وغيرها ، كما أدخل في صفوف الجيشين الشرقي والغربي عدداً من الجنود المصريين ، وذلك للحفاظ على التعادل ، والتوازن العام . وبالإضافة إلى كل ذلك أوجد في الجيش فرقة كان يوليها اهتمامه وعنايته هي : الفرقة السودانية ، وإلى جانبها فرقة أخرى تسمّى « الصقالبة » وأفرادها هم من الأرقاء وأصلهم من بلاد البلقان ، وكانت هناك أيضاً فرقة تسمّى « الاخشيدية » وعناصرها من بقايا الاخشيديين ، وعندما نذكر هذا الجيش الكثيف في ذلك العهد نقول : بأنه قام على عناصر مختلفة ، وأجناس متعددة ، وكان يعيش قواده ، وأفراده حياة رغيدة ، بفضل سهر الخليفة العزيز بالله على شؤونه ، وإدخاله الإصلاحات عليه ، وبما كان يغمره من الرواتب والمنح والعطايا .

أمّا أسلحته فكانت من :

الرماح ، والحراب ، والدروع ، والسيوف ، والأطبار (الفأس) والخناجر ، والبلطات ، والغفارات « على الرؤوس »

والمنجنيقات . والدبَّابات ، وهي آلات من الخشب السميكة ، ومن جلود الحيوانات الّتي لا تؤثر فيها النيران . وتتخذ عادة للهجوم بحيث يدخل فيها الجنود ، ويدفعون إلى جدران الحصون لنقبها وتهديمها ، والكبش وهي حجرة صغيرة يجلس في داخلها الجنود . وتستعمل لتهديم الأسوار ، ونقب الأبواب والجدران . وهناك « النار الإغريقية » أو النفطية وتستخدم لإضرام النار . ومن المعلوم أن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت كان يعتمد في حروبه على المشاة ، بالرغم من أن الكتاميين اشتهروا بالفروسية ، وهذا هو سبب تراجعهم في بعض المعارك في فلسطين والشام أمام القرامطة الذين كانوا يعتمدون على الفرسان أكثر من اعتمادهم على المشاة . أمّا الألوية الفاطمية فكانت خضراء وتارة بيضاء عندما يكون السلام والأمان .

أمّا بالنسبة للأسطول فإن الخليفة العزيز بالله اعتنى بأسطوله الفاطمي عناية كبيرة ، فأكثر من بناء السفن الحربية ، وجعل في مصر أماكن عديدة لصناعة السفن وإعدادها وأهمها :

الروضة ، الفسطاط ، المقس ، دمياط ، الاسكندرية .. هذا فضلاً عن الأماكن الأخرى الّتي كانت تعمل في المغرب ، وصقلية . ففي المغرب كانت موانيء الأسطول الفاطمي في

المهدية وسوسة ، أما الأسطول المولج بأوروبا والروم فكانت موانئه في جزيرة صقلية .

والحقيقة فإن ساطة الأسطول الفاطمي في عهد العزيز بالله ، كانت تمتد من انطاكية حتّى سبتة المغربية ، هذا بالاضافة إلى موانيء بلاد الشام وفلسطين البحرية فكانت على العموم ملاعب لقطع الأسطول الفاطمي وخاصة في صور ، وعكـاء ، وعسقلان .

أما أنواع السفن التي كانت تؤلف الأسطول الفاطمي فهي :

١ ـ الشلنديات : وهي مراكب مسطحة مختصة بحمل العتاد والرجال .

٢ ـ الشواني : وهي سفن فيها أبراج كبيرة ، وتشبه البوارج الحربية الكبرى وكانت مخصّصة للهجوم وللدفاع .

٣ ـ المسطّحات : نوع من السفن الحربية المخصصة للهجوم أيضاً .

٤ ـ الطرّادات : وهي سفن صغيرة سريعة الحركة تحمل الواحدة مئة محارب .

٥ – العشاريات : من القوارب التي كانت تستعمل في الأنهر الكبيرة . ولكن الفاطميون طوروها وأدخلوا عليها التحسينات ، واستخدموها في البحار .

٦ – الحرّاقات : سفن قوية تحمل المنجنيقات وآلات التدمير والهجوم .

وكان يقود الأسطول قائد أعلى يسمّى « أمير البحر » أو « قائد القوّاد » وكان تحت إمرته عشرة من القواد . ومما يجب أن يذكر أن الخليفة العزيز بالله كان ينفق على الأسطول عندما يقوم بعمليات الغزو نفقات يتجلّى فيها الكرم ، ولم يكن بحارة الأسطول من رتبة واحدة ، فهم درجات ، وحمالي رتب ، وأصناف ، وأقطع العزيز بالله رجالات الأسطول إقطاعات عرفت باسم « أبواب الغزاة » وترك لهم الغنائم ، والثياب ، والمتاع ، ولم يستبق للدولة سوى السلاح والأسرى ، ومن المشهور عن الخليفة المعز لدين الله ، وعن العزيز بالله الذي سار على خطى والده بأنه كان يشاهد بنفسه الأسطول حين خروجه ، فيقيم له معالم الأفراح ، ويبارك رجاله ، ويدعو لهم بالتوفيق . كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته من المعارك .

ولم يكتف الخليفة العزيز بالله بالعناية بالأسطول الحربي ، بل وجّه عنايته أيضاً إلى الأسطول التجاري التي كانت مهمته منحصرة بنقل السلع والمواد المصدرة إلى البلدان الأخرى والعودة محملاً من أرزاق وبضاعة هذه البلدان ، وَذكر أنه كان للدولة الفاطمية بعهد العزيز بالله اسطولان تجاريان :

أحدهما في البحر الأبيض المتوسط ، والثاني في البحر الأحمر ، فكانت الاسكندرية ودمياط في مصر ، وعسقلان وعكاء وصيدا وصور في الشام من أهم الموانيء في البحر الأبيض المتوسط ، كما كانت « عذاب » من أهم موانيء البحر الأحمر ، ومن المؤكد أن الأسطول التجاري الفاطمي كان مزوداً بأسطول حربي مهمته حمايته من قراصنة البحر .

العزيز بالله
وأعوانه :

من تتبع سيرة حياة الخليفة العزيز بالله نرى : أنه كان موفقاً باختيار أعوانه ورجال دولته ، وبارعاً بتوزيع الأدوار والمهمات عليهم ، ويكفي أنه أعاد القائد الكبير جوهر الصقلي إلى الخدمة بعد اعتزاله وانزوائه ، فسلّمه مركز القيادة العامة للجيوش الفاطمية ، كما سلّم يعقوب بن كلس صلاحيات الوزير الأول أي « رئيس الوزراء » ومنحه التفويض التام للنهوض باقتصاد البلاد ، واعتمد « جبر بن القاسم » وهو مغربي ليكون نائباً عنه ، وذلك عندما خرج من مصر إلى فلسطين والشام لحرب أفتكين والقرامطة ، وأعطاه مهمات وصلاحيات الخليفة بالتوقيع ، والصرف ، والعزل ، والنقل ، وكل ما يتعلق بشؤون الدولة .

واعتمد جعفر بن الفضل بن الفرات كمستشار خاص به ،

كما اعتمد علي بن عمر العدّاس وهو مغربي ، وأناط به مهمات دولية كبرى ، وهذا الرجل لعب دوراً كبيراً في عهد الخليفة العزيز بالله وكان من الشخصيات المرموقة في الدولة ، والحائزة على ثقة الخليفة .

أما عيسى بن نسطورس النصراني فقــد سلّمه كافة الصلاحيات الممنوحة ليعقوب بن كلس بعد وفاته ، ولكن المسلمين كرهوه ، ورفعوا ضده جملة شكايات تثبت أنه كان يعيِّن النصارى في مناصب الدولة ، بعد أن يقصي المسلمين عنها ، ولمّا تكاثرت الشكايات أمر العزيز بالله باعتقاله، ولكن « ست الملك » بنت العزيز تشفّعت له ، فأعاده العزيز بالله إلى منصبه ، وظلّ حتّى سنة ٣٨٦ هـ ؛ وبعد وفاة العزيز قبض عليه القائد ابن عمّار وقتله .

الدولة الفاطمية
في عهد العزيز بالله :

تسلّم الخليفة العزيز بالله شؤون الدولة الفاطمية ، بعيد وفاة والده المعز لدين الله مباشرة (ودونما كتمان الخبر هذه المرة) فتراءت أمام أنظاره دولة كبرى واسعة الأطراف ، غنية الموارد ، معززة الجوانب . مقسّمة إلى ولايات وأقاليم يدير شؤونها ويضطلع بإدارتها رجال مجربين عرفوا بسعة اطلاعهم ، وخبرتهم . وإخلاصهم ، وتسكنها شعوب وقبائل مختلفة الأجناس واللغات . ويحمي حدودها جيش منظم كبير ، وأسطول بحري يمخر عباب البحار شرقاً وغرباً للحفاظ على هيبة الدولة . وحماية حدودها ومرافقها . وكل هذا وضعه أمام المسؤوليات الجسام . وأجبره على التفرغ للعمل ، وتوجيه العناية والسهر على مصالح الدولة التي أفنى آباؤه وأجداده حياتهم في سبيل إقامتها ، والحفاظ على كيانها ، والسير بها قدماً نحو مدارج الرقي والتطور والحضارة .

فهذا هو المغرب بجميع أجزائه يقبض عليه بيد من حديد رجل قوي مجرّب عرف بإخلاصه وتفانيه للدولة الفاطمية ، وللخلفاء الذين أشادوها ، وهذا الرجل هو : « يوسف بن زيري بن مناد » أمير صنهاجة الذي كان الخليفة الرابع المعز لدين الله قد ولاّه شؤون المغرب نيابة عنه . عندما غادره وجاء إلى مصر للإقامة فيها ، فخضعت المغرب للنائب الجديد خضوعاً لم يكن يشوبه إلاّ بعض القلاقل القبيلية الموضعيّة التي لم تكن تشكل بمجموعها أي خطر على الدولة . وما عدا ذلك فكان المغرب يؤدي ما عليه من ضرائب ، وأموال . وخراج كإقليم خاضع للقاهرة ، هذا بالإضافة إلى مساهمته بإرسال الجنود إلى مصر للمساهمة والاشتراك بالفتوحات ، وضم البلدان والأمصار ، ولكن كل هذا قد تغيّر بعد ذلك عندما جاء منصور بن يوسف وتسلّم مركز والده ، فثارت في نفسه نوازع التفرد في الحكم والاستقلال ، وفصل المغرب عن الدولة الأم مصر ، وعندما علم العزيز بالله بما يضمره منصور جنح إلى استعمال الحكمة والعقل فقد كانت الدولة في وضع لا يسمح لها بالدخول في معارك جانبية . فكتب إليه وشوّقه وأغراه ومنحه بعض الصلاحيات والامتيازات ، وظلّت علاقته أخيراً مع العزيز ترتدي طابع الود والوفاق .

أما صقلية فظلّت محافظة على هدوئها واستقرارها تنعم بالراحة والاطمئنان في ظل أسرة « الكابيين » المعروفين الذين حافظوا حتى النهاية على ولائهم للأسرة الفاطمية . ولدولتهم فلم يخطر ببال أحد منهم أية فكرة للخروج أو العصيان ، وهكذا ظلّت الجزيرة الكبرى على وضعها لا يعكر صفو عيش أهلها إلاّ بعض التحركات . والاتصالات ، والمحاولات من قبل الروم تارة والأمويين أخرى لإحداث القلاقل ، وإخراج القاعدة الحربية الكبرى عن هدوئها ، واستقرارها ، على أن كل هذا لم يكن ليغير من وضع الجزيرة الراهن التي كانت مرتبطة ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بالقاهرة .

وننتقل إلى مصر فنذكر : أنها كانت تنعم بهدوء ، واستقرار ، وازدهار اقتصادي لم يسبق لها أن نعمت به في حياتها . فالعزيز بالله بالرغم من أنه تسلّم شؤون الخلافة وهو صغير السن ، غير أن ذلك لم يكن ليثنيه عن العمل ، وبذل الجهود في سبيل إعلاء شأن البلاد الجديدة ، سيما ولم يكن ينقصه أي شيء من المقومات ، والكفاءات المطلوبة لإدارة الشؤون والاضطلاع بمهام الخلافة . فالعزيز بالله لم يكن يقلّ عن والده علماً وثقافة ودراية ومعرفة بإدارة شؤون الدولة أو ربما كان يفوقه في مجالات أخرى .

وإنه لمن حسن حظه أنه استطاع منذ الأيام الأولى لتسلمه شؤون الخلافة من اختيار الأعوان ، والولاة ، والقواد فمنحهم الصلاحيات . ووزّع عليهم المسؤوليات والتعليمات.وظهرت البادرة الأولى عندما أسند مهمة الوزير الأول ليعقوب بن كلس الذي شهد له العالم في ذلك الوقت بأنه أكبر عقلية إدارية ، واقتصادية ، ومالية ، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما رأينا البلاد في عهده تتخطّى الصعاب فتصل إلى أعلى مستوى من الازدهار الاقتصادي ، فتوسعت دائرة التجارة والتصدير ، ونمّت الزراعة ، وكثرت المحاصيل . وتحسنت أحوال سكان الريف وهاجر الكثير من الأغنياء ، ورجال المال إلى القاهرة للإقامة فيها ، والعمل في المجالات الاقتصادية وكل هذا أفاض على خزائن الدولة الأموال ، وجعل الشعب ينعم بالرفاهية ، وبسطة العيش ، مضافاً إلى ذلك أنه علينا أن لا ننسى بأن الأموال « الخاصة » بالخلفاء الفاطميين التي كانت ترسل قبل اتباعهم في المشرق والمغرب باسم أموال « الزكاة » فهذه الأموال كانوا يضيفونها إلى خزائن الدولة ، ويخصصون القسم الأكبر منها لتغطية نفقات الجيش .

وهكذا انتقلت مصر إلى طور جديد ، وعهد جديد من الأمن والرخاء والازدهار والعمران ، واستقرت الأمور ،

وتوطدت أركان الخلافة الفاطمية ، وامتد نفوذها ، وسلطانها إلى ما وراء الحدود والبحار ، وكل هذا بفضل السياسة الحكيمة والإدارة الواقعية التي رسمتها الدولة في المجالين الداخلي والخارجي :

أما بالنسبة لفلسطين والشام :

فحينما تسلّم العزيز بالله مقاليد الحكم كانت الشام في مهب العواصف والأنواء ــ الأوضاع فيها مضطربة . والحياة غير مستقرة . . . أجل . . . لقد كانت تخضع للحكم الفاطمي فترة ثم لا تلبث أن تخرج عن هذا الحكم لتستقل أو لتستقبل فاتحاً آخر .

ففي سنة ٣٦٤هـ استولى القائد التركي أفتكين عليها ، بينما جاء القرامطة واستولوا على فلسطين (مرّ معنا في الجزء الرابع ــ أحداث الشام في عهد المعز لدين الله) فكان على العزيز أن يعمل على استرداد الشام وفلسطين بشتى الطرق . فبذل لأفتكين شتى المغريات والتشويقات ، ورغّبه بالإبقاء عليه والياً على الشام إذا ما بايعه في الخلافة ، ودخل تحت طاعته ، ولكن أفتكين رفض الطلب ، وهذا ما جعل الخليفة العزيز يضع الخطط لاستعادة فلسطين والشام .

وهنا لا بد من العودة إلى ما قبل هذه الأحداث والقول :

بأنه عندما تقهقر الحسن القرمطي المعروف بالأعصم عن مصر سنة ٣٦٣هـ. عاد إلى بلاده ، واستولى الفاطميون على الشام ، ولكن ليس معنى هذا أن الأمر قد استتب لهم في هذا القطر ، فالمعز لدين الله هنا استغل العداء الذي حصل فجأة بين الزعيم العربي «ظالم بن موهوب العقيلي» وبين الحسن الأعصم – وأبي المنجا نائبه في الشام – فعيّن المعز لدين الله ظالماً على دمشق ، وعندئذ قام ظالم وجرّد جيشاً كبيراً من العرب ، وانضم إليه بعض الجنود الفاطميين ، فاستولوا على دمشق ، وقبضوا على أبي المنجا وابنه وكان هذا انتصاراً حاسماً للفاطميين ، إذ أن المعز لدين الله اعتقد أن بلاد الشام أصبحت تحت نفوذه ، وأن القرامطة لن يعودوا بعد الآن ، وقد تعزّز ذلك بإرسال قوى فاطمية وضعت تحت تصرف ظالم لإقرار الأمن والسلام ، ونشر نفوذ الفاطميين ، وكان على رأس هذا الجيش علي بن جعفر بن فلاح (نجل القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي قتله القرامطة في دمشق) ، وبعد فترة ضاق أهل الشام ذرعاً بظالم ابن موهوب ، ومن معه من الأعراب . كما ضاقوا بعلي بن جعفر وجيش المغاربة ، فقاموا بثورة ضدهم ، ومن الغريب أن ظالم العقيلي وقف بجانب أهل الشام ، أو بلغـــة أصح

كان موقفه كموقف رجال البوليس فلم يستطع رد أهالي دمشق كما لم يستطع قمع المغاربة ،وأخيراً وقف ضد المغاربة فقاتلوه ، وتمكن علي بن جعفر من إلحاق الهزيمة به ، وإحراق المدينة ، ونهبها ، والتنكيل بأهلها ، وقد استمرت الفتنة قائمة مدة تزيد على الستة أشهر .

بعد هذا نحي ظالم عن حكم دمشق ، وولّى علي بن جعفر ابن أخته « جيش بن الصمصامة » على دمشق ، ولكن لم يدم ذلك سوى شهراً واحداً فاندلعت الثورة من جديد .

ولمّا علم الخليفة المعز بالأمر عيّن « ريّان الخادم » والي طرابلس على دمشق ثم أعاد علي بن جعفر إلى الرملة ، وظلّ هذا الأمر قائماً حتى حين دخول أفتكين دمشق ، وعندئذ قام ظالم بن موهوب العقيلي ، وكان قد عين من قبل الفاطميين والياً على اقليم بعلبك فاستعان بعلي بن جعفر والي الرملة ، وتقدّما بجيوشهما لصد أفتكين الذي كان قد استعان بالحمدانيين ، وعلى أبواب دمشق وقعت معارك رهيبة ،فتمكن أفتكين من إحراز الانتصار ، ودخلها .

أجل . . . إن الامور لم تستقر في الشام للفاطميين منذ عهد المعز لدين الله ، فبعد مقتل القائد الفاطمي جعفر بن فلاح على أيدي القرامطة ، وبلاد الشام عرضة للغزوات تأتيها تارة

من الشمال ، وأخرى من الجنوب ، وفي عهد العزيز أي بعد أن تمّ لجوهر الصقلي القضاء التام على جيش القرامطة ، وجيش أفتكين ، فقد ذكر أنه تغلب عليها رجل من أهلها اسمه « قسّام » فخلع طاعة العزيز بالله ، واستقل بالأمر دونه ، فأرسل إليه العزيز القائد الفضل بن صالح ، ولكنه لم يتمكن من دخول المدينة . فاضطر ثانية إلى إرسال قائد آخر هو بلتكين ، فجاء إلى دمشق وحاصرها ثم دخلها أخيراً ، واعتقل قسّام ، وأرسله مخفوراً إلى القاهرة ، ولكن العزيز عفى عنه بعد مدة من اعتقاله ، وظلّ بلتكين يحكم الشام خمسة أشهر إلى أن جاء بكجور أحد قواد بني حمدان ، فحكم دمشق فترة وذلك سنة ٣٧٢ هـ .

أما في فلسطين فقد قام أحد زعماء العرب وهو : « المفرج ابن دغفل بن الجرّاح » فاستولى على الرملة وما جاورها . وكان يظهر الطاعة للفاطميين أولاً ، ولكنه عاد سنة ٣٧١ هـ. فخلع طاعتهم فسيّر إليه العزيز بالله « رشيق العزيزي » حيث طرده من فلسطين ، ومن الشام أيضاً ، فالتجأ إلى أمبراطور الروم ، ثم عاد وأعلن طاعته للعزيز فعفى عنه .

أما حلب فكانت تحت حكم سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني سنة ٣٨١ هـ . وكان الحمدانيون يدينون بالولاء

للعباسيين ، أما علاقاتهم مع الفاطميين فكانت بعيدة عن الود وكثيراً ما كانوا يستعينون بالروم للحفاظ على إماراتهم ، وللوقوف ضد التوسع الفاطمي .

وأخيراً ثار قرعويه على سعد الدولة ، وانتزع حلب منه ، فسار سعد الدين إلى حمص حيث أقام الدعوة للفاطميين ، ثم استعان بالقائد بكجور ، وأقام الدعوة للطائع العباسي ، وولاه على حمص ، وسرعان ما ساءت العلاقات بين سيف الدولة وبكجور أخيراً ، مما اضطر بكجور إلى الاستعانة بالفاطميين لفتح حلب ، ولكن حلب استعانت بالروم بينما وعد العزيز بكجور بولاية دمشق إلا أن ذلك لم يصادف هوى من الوزير يعقوب بن كلس فمانع في ذلك وطالب من بلتكين عدم تسليم دمشق إلى بكجور ، وحذر الخليفة العزيز من تسليم البلد إليه ، ولكن الوزير عندما علم أن المغاربة يستعدون لقتله اضطر مرغماً إلى استدعاء بلتكين وقواته وتسليم الشام إلى بكجور الذي لم ينس للوزير معارضته ، فأساء إلى أصحابه في دمشق وقتل نائبه فيها ، وهنا كان لا بد للعزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ من تجريد حملة عهد بقيادتها إلى منير الخادم وأصدر الكتب إلى جميع الولاة الخاضعين له بمساعدته ، والسير معه . وهنا جمع بكجور العرب وغيرهم . والتقى الجيشان عند

« داريا » حيث دارت الهزيمة على بكجور ، وخاف من وصول نزّال والي طرابلس لمؤازرة منير الخادم ، وكان قد كوتب بذلك ، فبادر بطلب الأمان من « منشا » كاتب الجيش على أن يسلم دمشق . فأمنه وغادر دمشق إلى الرقة ، وهنا غضب العزيز على منشا لتركه بكجور وتأمينه خوفاً من عودته لدمشق، فعزله عن كتابةالجيش، ثم أرسل إلىبكجوريسترضيه، ويترك له أملاكه ، وضياعه في دمشق دون مصادرة . وهكذا تسلّم منير الخادم دمشق ، وفرح أهلها بولايته . ورجعت الشام ما عدا حلب إلى ظل الفاطميين .

ومهما يكن من أمر فإن العزيز بالله لم يفقد الأمل في ضم حلب إلى سلطانه وكان بكجور عندما فرّ إلى الرقة قد كتب إلى بهاء الدولة بن بويه للدخول في طاعته ، كما كتب إلى صاحب ديار بكر يدعوه للانضمام إليه ، وهكذا كتب إلى سعد الدولة صاحب حلب للعودة إلى ما كان عليه من الطاعة على أن يعطيه حمص ، فلم يجد أذناً صاغية ، وعندئذ أخذ يكتب إلى بعض رفاقه من قواد سعد الدولة ، فأجابوه على طلبه بالعمل على إحداث انقلاب ضد سعد الدولة ، وأرسل إلى العزيز بالله يمنيه بحلب ، فمال إلى مساعدته ، ولمّا هاجم بكجور حلب كان على موعد مع نزّال وجيوشه ، ولكنه لم

يأت ، كما أن قوّاد سعد الدولة تخلوا عنه وخافوه . فكانت النتيجة أن حارب وقتل . وهنا يبدو أن العزيز تخلّى عن فكرة احتلال حلب مفضّلاً الخروج لقتال الروم الذين كانوا يساعدون حكام حلب ويمدونهم بالمساعدات وذلك كي لا تقع إمارتهم في أيدي الفاطميين .

وهكذا فإن النفوذ الفاطمي لم يتوقف عند حلب . وخاصة في عهد العزيز بالله . فتطلعاتهم كانت تذهب إلى أبعد من ذلك . . . إلى بغداد . . . وإلى الموصل . . . حيث ذكر التاريخ أن حكامها العقيليين قد ضربوا السكة باسم العزيز بالله . وخطبوا له على المنابر وذلك سنة ٣٨٢هـ. وبعهد محمد بن المسيّب العقيلي .

أمّا الروم وعلاقات الفاطميين معهم بعهد الخليفة العزيز بالله . فمن الثابت أنها كانت ترتدي طابع المد والجزر . فهؤلاء كما يبدو وضعوا خطة عامة لهم ، تقضي بالوقوف بوجه المد الفاطمي والتصدي لمحاولاتهم التوسعية ، وعدم فسح المجال أمامهم لاحتلال حلب . لأن معنى ذلك اتخاذ هذه المدينة قاعدة لشن الهجمات عليهم ، فكانوا يحرصون على إبقاء الدولة العباسية في وضعها الراهن ؛ ومساعدة الحمدانيين على الاحتفاظ بإمارتهم في حلب ، ثم مساعدة كافة الحركات التي تندلع سراً أو علانية في الشام وفلسطين

لإشغال الفاطميين عنهم ... كل هذا وكانوا يتظاهرون بأنهم مع الفاطميين ، ويخطبون ودهم في شتى المناسبات ، ونحن نرى أنهم بادروا أخيراً وفي عهد العزيز بالله إلى عقد معاهدة صلح مع الفاطميين من بنودها :

١ – أن يطلق الروم سراح كل أسرى المسلمين .
٢ – أن يدعى للخليفة العزيز بالله في جامع القسطنطينية .
٣ – أن تضع الحرب أوزارها لمدة سبعة سنوات .

ولكن هذه المعاهدة نقضت بعد وقوع حوادث عنيفة في حلب . ومما يجب أن يذكر :

إن الخليفة العزيز بالله عندما علم بعزم الأمبراطور باسيل بالتوجه إلى الشام قرر من جهته الخروج إلى ملاقاته ، وأمر بإعداد الحملة والأسطول ، ولكن الأسطول الفاطمي اشتعلت فيه النيران فجأةً سنة ٣٨٦ هـ في دار الصناعة ، فقد ثبت أن التجار الروم الذين كانوا يتعاطون الأعمال التجارية مع مصر قد أضرموا فيه النار ، وهذا ما جعل العزيز بالله يأمر بالقبض عليهم ، وإعدام مئة وستين منهم .

جوهر الصقلي

ثانية امام القرامطة :

لم يكن الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله مرتاحاً وهو في بدء عهده إلى أوضاع الشام وفلسطين . . .بل لم يكن يرضى أن تتوطد دعائم ملكه في مصر والمغرب بينما في فلسطين والشام لم يتمكن من إقرار النظام فيها ، وإزاء كل هذا لم يجد بداً من اعتماد جوهر الصقلي لقيادة الجيش الفاطمي . أو بالأحرى لضم فلسطين والشام إلى الدولة الفاطمية . فاعتبر جوهر رجل الساعة الذي يعتمد عليه . ويركن إليه عندما تتأزم الأمور ، وكان جوهر عند حسن ظنه ، فتسلّم القيادة من جديد سنة ٣٦٦ هـ ، وسار على رأس جيش كبير إلى فلسطين والشام ولمّا علم القرامطة به انسحبوا إلى الأحساء ، وكانوا يعسكرون في الرملة ، فدخلها دون قتال ثم تأهب للذهاب إلى دمشق . وكان يحكمها أفتكين ، فعندما علم به أخذ يعد العدة لحربه وكان أول ما فعله أن استثار حماس أهل دمشق فقال لهم :

ثقته به . واعتذر بالوقت ذاته عن إجابة الطلب . لأن أهل دمشق لا يوافقون على أن يتخلّى عنهم .

وهنا جنّد أفتكين جيشاً من أهالي دمشق ، وانطلق إلى عكا ومنها إلى طبرية حيث انضمّت إليه الحاميات القرمطية ، وهناك استعد للقاء القائد جوهر ، وكان قد جمّع إعاشة ومؤونة الجيش من بلاد حوران ، ولدى المعركة الأولى تراجع أفتكين إلى دمشق سنة ٢٦٦ هـ ، وتحصّن فيها ، وعزّز السور حولها ، كما حفر خندقاً كبيراً ، وتهيأ هو وجنده للدفاع ، فلحق به جوهر ، وفي ضواحي دمشق بدأت المعارك العنيفة الطويلة ، ورغم ما أبداه أفتكين من ضروب الشجاعة والقيادة التي كانت موضع إعجاب جوهر فإنه شعر بحراجة موقفه مما اضطره إلى الكتابة إلى الحسن الأعصم القرمطي ، يطلب إليه السير سريعاً والتعاون معه في قتال الفاطميين ، فلبّى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق .

أما جوهر فقد درس الأمر من مختلف وجوهه ، وقدّر قوة القرامطة وشجاعتهم واضعاً نصب عينيه ، متذكراً مصير « جعفر بن فلاح » في حروبه مع القرامطة . فطلب من أفتكين هدنة تخوله حق الانسحاب بهدوء . والجلاء عن الشام ، ولم يفعل ذلك إلاّ بعد أن أدرك أن موارده التموينية كادت تنفذ ،

وان الإمدادات لا تصل إليه بصورة منتظمة ، وأن جيشه أصبح بحالة سيئة من العوز . خاصة وأن الوقت شتاء مما يتعرقل وصول الإمدادات ، كل هذا جعله يستعمل الحيلة لإنقاذ جيشه ولكي لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه جعفر ابن فلاح .

أجل . . . أجاب أفتكين جوهر إلى طلبه ، فرحل عن دمشق قبل وصول القرامطة وأسرع بالسير حتى وصل إلى طبرية ، وعندما وصل الحسن القرمطي إلى دمشق ، لم يتمهل بل سار في أثره ، وتبعه أفتكين على رأس جيش مؤلف من خمسين ألف من الدمشقيين ، وهناك وقعت المعارك العنيفة بين جوهر والأعصم ، وحميت وطيس المعارك لدرجة أن أصبح عدد القتلى من الفريقين لا يعرف ، وفي النهاية انكفأ القرامطة وأفتكين أمام جوهر ، وتراجعوا إلى موقع « نهر الطواحين » الواقع على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق .

فتبعهم جوهر ، ولكنه عندما رأى أن جيوش الأعداء قد استلموا الماء وهو المورد الوحيد ، كتب إلى العزيز بالله يعلمه بأنه سينسحب إلى عسقلان . لأنه لا قبل له بمجابهة قوى أفتكين والقرامطة سيما وأن جيشه تنقصه المؤونة والإعاشة .

وصل جوهر إلى عسقلان . ولكن أفتكين والحسن الأعصم

تبعاه وحاصراه فيها ، وظلّ الأمر على هذا الحال حتى عزّت المؤونة ، وفقد القوت ، وكان الوقت شتاءً ولا يمكن إرسال المؤن في البحر . . . وهنا رأى جوهر أن يلقي سيفه جانباً ، وأن يستعمل العقل والسياسة سيّما وهو الذي عرف بحسن درايته ، وبعد نظره . . . لقد كان يفكر بأن عليه أن يتخلص من هذا الطوق المحكم الذي يطوق جيشه ، كان يفكر بأن عليه واجب إنقاذ هذا الجيش كي لا يقع فريسة بين أيدي القرامطة وأفتكين . وفكّر أخيراً بأن عليه أن يحاول فكّ هذا التحالف الثنائي بين أفتكين . والحسن القرمطي .. هذا التحالف الذي أخذ ينمو ويتفاعل لـــدرجة أنه جاء أخيراً يهدد سلطان الفاطميين في كل مكان . . . أجل . . . أراد جوهر أن يصل باللين والدهاء إلى مـــا عجز عن الوصول اليه بطريق الحرب والقتال ، وكان أن كتب إلى أفتكين يطلب إليه المدنة ، وإحلال الوئام ، والصفاء محل الحرب والقتال ، ثم أنه كرّر عليه ، وطلب الاجتماع به .

وبالفعل تمّ الاجتماع بين القائدين ، وللمرة الأولى استعمل جوهر الحزم واللين معاً ومهر في سياسته ، فجاء أفتكين من ناحية الدين طالباً إليه حقن دماء المسلمين ، والأبرياء والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يذهب إلى أبعد من ذلك أي

إلى فك التحالف بين أفتكين والأعصم ، حتى إذا ما تمّ له النجاح في خطته ، عمل على القضاء على كل منهما بمفرده ، وذكر التاريخ أنه قال لأفتكين :

قد علمت ما يجمعني وإيّاك من حرمة الإسلام، وحرمة الدين فهذه الفتنة قد طال أمدها ، بل هذه الحرب قد أريقت فيها دماء الأبرياء من الفريقين ، فمن هو المسؤول عن هذه الضحايا البريئة أمام الله ؟ لقد دعوتك للصلح . والوداعة ، والدخول في السلم والطاعة ، وبذلت لك كل إرادة طيّبة وإحسان وولاية ، فأبيت ألاّ القبول بما يشب نار الفتنة ، ويستّر عنك وجه النصيحة . . . فراقب الله تعالى ، وارجع إلى نفسك ، واغلب رأيك على هوى غيرك ، وماد ّيدك لأصافحك وأعاهدك ، وأعطيك الشام تحكمها ، وتتصرف بها دونما أية معارضة . فأجابه أفتكين :

أنا والله واثق بك ، وبصحة رأيك ، والمشورة منك لكنني لا أتمكن من تنفيذ ما تدعوني إليه ، فالقرمطي لا يرضى بدخوله معي في السلام . فردّ جوهر :

إذا كان الرأي والأمر على ما تقول ، فإني أصدقك على أمري تعويلاً على الأمانة لما أجده من الفتوة عندك ، فقد

ضاق الأمر ، وامتنع الصبر ، أن تمنّ عليّ وعلى هؤلاء المسلمين الذين لا ذنب لهم . وتعفي عنهم . لأعود بهم إلى مصر شاكراً لك مقدراً عاطفتك ، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء . واصطناع المعروف ، بل تكون قد طوّقت عنقي وأحسنت إليّ بما لا أنساه ، ولا بد لي من مقابلتك بهذا الجميل يوماً من الأيام .

فقال أفتكين :

افعل ، وأمن عليّ .ولكن لا بد لي من أن أعلّق سيفي ورمح الأعصم على باب عسقلان ، فتخرج أنت وأصحابك من تحتهما . . . فرضي جوهر بذلك ، ثم أنهما تعاهدا وأعطى أفتكين جوهر ختمه رهينة على الوفاء بالعهد . . . . وافترق القائدان . . . فعاد أفتكين إلى عسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان حيث أرسل إلى أفتكين الهدايا الثمينة .

أما أفتكين فكتب إلى الحسن الأعصم وكان بالرملة يخبره بما تمّ بينه وبين جوهر فذهب إليه ولامه بقوله :

لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . فهذا جوهر ذو رأي وحزم ومكر ودهاء وسياسة . وأنه قد خدعك بما عقده معك حتى ينجو بنفسه وبجيشه . وسترى أنه سيعود إلى صاحبه

العزيز ويحمله على العودة إلينا حيث لا يكون لنا طاقة على محاربته فيأخذنا بالسيف . . . أنصحك أن ترجع عن رأيك ، وأن تتركه محاصراً في عسقلان هو وأصحابه حتى يموتوا جوعاً أو نأخذهم بالسيف .

ولكن أفتكين تمسك بعهده لجوهر وقال :

لقد عاهدته وأقسمت ، وما أستجيز الغدر بعد ذلك ، كما أني لا أعود عن عهد عاهدته ، وقسم أقسمته ، فلا مجال للأخذ والرد ، وهنا رضخ الأعصم للأمر الواقع وسكت على مضض ، وأخيراً علّق أفتكين سيفه ، ورمح الأعصم على باب عسقلان ، فخرج جوهر وأصحابه سالمين . . . ومضى إلى مصر .

أجل . . . لقد استخدم جوهر الحيلة في الحرب ، وهي أمضى سلاح ، ومشى على مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » فقد رضي أن يمر هو وأصحابه تحت سيف أفتكين ورمح الأعصم في وقت يعلم أن في هذا الذل والمهانة إليه كقائد كبير لم يسبق له أن خسر معركة ، أمّا بالنسبة للدولة الفاطمية فقد علم أن في عمله هذا قد جلب لها العار . ولكن ما العمل ؟ ما دام لا سبيل إلى إنقاذ هذا الجيش الجائع المنهوك القوى ، وإخراجه من

هذا السجن الضيق ، والعودة به سالماً إلى قواعده إلاّ بهذه الحيلة ، ومن جهة أخرى فإن خطة جوهر كانت ترمي إلى كسب عامل الوقت ؛ أي حتّى الخروج من فصل الشتاء ، وكل هذا لم يكن يجهله الأعصم . وأخيراً :

وصل جوهر إلى مصر ، ودخل على العزيز بالله ، وشرح له الحالة من جميع وجوهها . فقال له العزيز بالله . . . والآن ما الرأي ؟

قال :

إذا كنت تريد القضاء عليهما ، فدعني أجهّز جيشاً ، وأنتقي قواده وأفراده كما أريد ودعني أعدّ له بنفسي المؤونة والإعاشة والذخائر والأموال . . . فأطلق العزيز بالله لجوهر اليد بأن يتصرف كما يريد ، وأعلن له أنه سيكون رفيقه في هذه المعركة . وهكذا في غضون أيام معدودات تمكن جوهر من تجهيز جيشه وإعداده ، فانطلق به ميمماً شطر فلسطين وكان الخليفة العزيز بالله على رأس هذا الجيش ، وعندما علم أفتكين والأعصم بما أقدم عليه جوهر جمعوا قواتهم في الرملة ، واستعدوا للقتال .

والتحم الجيشان ، وبدأ القتال ، وحمي وطيس المعارك ،

وجال أفتكين بين الصفوف يكر ويفر . . . يطعن ويضرب ... تارة في الميمنة ، وأخرى في الميسرة . . . ينقضُّ كالنسر ، ويمرُّ كالسهم . . . فقال العزيز لجوهر وكانا يراقبان سير القتال :

أرني أفتكين . . . فقد صار عندي رغبة بالتعرف إلى وجهه . . . فأشار إليه وهو في الساحة يطعن بالرمح تارة ، ويضرب بالسيف أخرى ، والناس يتحامونه ويتقونه بل يفرون أمامه ، فاعجب العزيز بما رأى من فروسيته وشجاعته ؛ ثم وقف ، وأنفذ إليه رجلاً من عنده يسمّى « نميرة » وقال له . . . قل له :

يا أفتكين . . . يقول لك العزيز بالله ، وقد أنزلته عن سرير ملكه ، وأخرجته لمباشرة الحرب بنفسه ، وأنه مسامحك على ما فعلت ، وصافح لك عنه . . . فاترك ما أنت عليه ، ولذ بالعفو . . . فلك عهد الله وميثاقه بأنه يؤمنك ، ويصطفيك ، وينوّه باسمك ويهب لك الشام ، ويتركها في يدك .

ومضى « نميرة » إلى أفتكين وبلّغه رسالة العزيز ، فخرج أفتكين إلى حيث يراه الناس ، وترجل وقبّل الأرض مراراً ثم مرّغ خديه وقال :

قل لأمير المؤمنين ، لو تقدم هذا القول منه ؛ لسارعت

إليه ، وأطعت أمره ، أما الآن فليس لي إلاّ ما ترى . وعاد نميرة إلى العزيز وبلّغـــه ما سمع . . . فقال له : ارجع إليه وقل له أن يقترب مني بحيث أراه ويراني ، فإن استحققت أن يضربني بالسيف فليفعل . . . ومضى نميرة ، وأبلغه ذلك فقال أفتكين :

ما كنت بالذي أشاهد طلعة أمير المؤمنين ، وأنابذه الحرب ، وقد خرج الأمر من يدي . . . وفي تلك اللحظات حمل أفتكين على ميسرة الجيش الفاطمي فقتل الكثير من رجالها ، وفرّق الصفوف ، وأطاح بالرؤوس ، وشاهد العزيز ذلك ، وكان جوهراً يقف إلى جانبه فقال :

يا جوهر امض إلى حيث أفتكين ، وقف بمواجهته ، وسدّ عليه المنافذ أما أنا فسأتولى قيادة فرق الهجوم ، وعليّ مهمة ضرب جيش القرامطة الضربة الأخيرة .

ويذكر التاريخ :

إن العزيز ركب بغلة وكان على رأسه مظلة عندما نزل إلى الساحة ، وهذا القول لا ينطبق على واقع الحروب ، ولا يمكن أن يصدقه العقل . . . إنّ العزيز ركب حصانه ودخل المعركة منقضاً على قلب الجيش القرمطي ، وبعد جولة أو جولتين دبّ الذعر في صفوف القرامطة وبدأوا بالتراجع ،

وهكذا بالنسبة لأفتكين فإنه لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام جوهر وكان أن ولّى الأدبار وفعل الأعصم مثله ، ولكن جوهر أمر بتتبعهم وأعمل السيف في هذه الجيوش التي انقسمت إلى شرازم ضالة في الأرجاء لا ترى أمامها ما تلجأ إليه ، وقد قدّر عدد القتلى في هذه المعركة وحدها بثلاثين ألفاً .

رجع العزيز إلى قواعده ، وهكذا جوهر ، بعد أن وضعا جائزة مقدارها مئة ألف دينار لمن يأتي بأفتكين حياً ، ولم تنقض إلاّ فترة قصيرة حتى قبض عليه بعض الأعراب ، وجاءوا به إلى العزيز ، وعندما مثل أمامه أكرم وفادته ، وحمله معه إلى القاهرة ، أما بقية الأسرى فقد أحسن إليهم أيضاً وأمنهم ، وكساهم ، وأسند إلى بعضهم الأعمال .

ويذكر التاريخ :

إن القاهرة خرجت عن بكرة أبيها عندما وصل الخليفة العزيز إليها ، وكان الناس باشتياق إلى رؤية أفتكين الذي لم يشك أحد إلاّ بأنه سيقتل ، ولكن تأبى أخلاق العزيز إلاّ أن تظهر في هذا الموقف ، فنراه يعفو عند المقدرة عن رجل دوّخ الدولة الفاطمية ، وقد كان لجوهر الفضل في حمل العزيز على هذا الموقف ، فقد شفع به ، وهدأ من حدة العزيز على

الرجل الذي عكّر مزاجه ، وأقاق باله ، وكاد يعرض دولته للدمار . ويذكر التاريخ أيضاً :

إنّ أفتكين لمّا دخل على العزيز في سرادقه في القاهرة بعد أيام من وصوله إليها ، وكان يحيط به كبار رجال الدولة ، ترّجل عن فرسه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وحمل إلى دست قد نصب ليجلس عليه ، فلم يكن منه إزاء هذه الحفاوة إلاّ أن رمى بنفسه إلى الأرض ، وألقى ما على رأسه ، وبكى بكاءً شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال :

ما استحققت الإبقاء عليّ فضلاً عن العفو الكريم ، والإحسان الجسيم . وامتنع عن الجلوس في الدست ، وقعد بين يدي العزيز ، وهنا ألبسه جوهر لباساً تكرّم به عليه ، كما أن العزيز هدأ من روعه ، فجدّد الدعاء ، وتقبيل الأرض ، وشكر جوهر على وفائه ومقابلته الإحسان بإحسان مثله . وتؤكد المصادر :

إن العزيز بالله بالغ في إكرامه ، فأسكنه دارا فسيحة ، وأغدق عليه المنح والصلات والعطايا ، وظلّ هكذا حتى مات مسموماً سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتّهم يعقوب بن كلس بقتله بالسم وذلك لترفعه عليه ، ولهذا سجنه العزيز حتى ثبتت براءته أخيراً .

وهكذا وطّد جوهر سلطان الفاطميين في الشام وفلسطين ، كما وطّدها في مصر ، وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الفاطمية . وقد أرّخ هذه المعركة الشاعر تميم بن المعز لدين الله بهذه القصيدة الرائعة :

«وإنّا لقوم نروع الزمان
ولسنا نراع إذا ما سطا
ومنّا الإمام العزيز الذي
به عاد سيف الهدى منتضى
سعى للشآم وقد أصبحت
بها الحرب نزّاعة للشوى
ولمّا تقابلت الجحفلان
وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يبقَ في الصحف من قائل
هلمّ ولا من مجيب أنا
وقد ولغت في الصدور الرماح
وصلّت لبيض السيوف الطلى
فلولا الإمام العزيز الذي
تداركها وهي لا تصطلى
فسكّن عارض شؤبوبها
وأمسكَ من سجله ما انهمى

بدا لهم دارعاً في العجاج
كصبحٍ بدا طالعاً في الدجى
يكرّ ويبسمُ في موقفٍ
عبوس الكماةِ به قد بدا
ولم يخزل السيف منه يداً
ولم يسكن الروع منه حشا
يقود إلى الحرب من جنده
أسود رجال كأسد الشرى
فلم تصدر الرمح حتّى انثنى
ولم تغمد السيف حتّى انفرى
ولم يحمل الموت حتّى حمات
ولولاك ما خاب ذاك اللظى
ولمّا رأى فتحها أفتكين
عليه وأخلفه ما رجا
تولّى لينجو فحفّت به
جيوشك واستوقفته الربا
ولو طلب العفو قبل الهروب
لكنت له غافراً ما مضى
ولكنه فرّ يبغي الخلاص
وقد بلغ الماء أعلى الرُبى

ولم يكُ كفؤك في حربه
وإن كان من بأسه المنتهى
وقد هزم الأسد حتى انتهاك
فلمّا رآكَ غدا لا يرى
فراح وحشو حشاه أسى
وقد ملئت مقلتاه عمى

جولة في ربوع
القرامطة :

في بحوثنا الكثيرة عن القرامطة ذكرنا أن فرع الكوفة والسواد هم غير قرامطة البحرين ، وكنا ذكرنا أن الفرع الثاني هو الذي لعب الدور الأخير في حياة هذه الجماعة ؛ ومن الثابت أن الفاطميين منذ عهد عبيد الله المهدي حتى آخر خليفة لهم في مصر لم يقطعوا اتصالهم بهذه الجماعة أي قرامطة البحرين ، بالرغم مما كان يعتور علاقاتهم من انقطاع تسببه الظروف السياسية ، والأوضاع المتقلبة .

فغير خافٍ إن أسرة آل الجنابي تعتبر الأسرة المؤسسة للقرامطة في البحرين ، ففي عهد عبيد الله المهدي كان أبا سعيد الجنابي سنة ٣٠١ هـ ، وبعده تسلّم سعيد ولكنّه شذّ عن مبدأ أبيه ، وذكر أن عبيد الله المهدي قام بمجهود كبير حتى عزله ، وأوغر صدر اتباعه على القيام بثورة ضده ، وأخيراً عيّن

أبا الطاهر الجنابي سنة ٣٠٥ هـ . فأطاع الفاطميين وامتثل أوامرهم ، وقد استمر على تأدية الأموال للمهدي ثم للقائم حتى توفي سنة ٣٣٢ هـ .

وبموت أبي طاهر وجد الفريق المناهض للفاطميين من القرامطة فرصة لإعلان موقفهم سيما وهذا الزعيم قد مات دون أن يترك من أبنائه مع كثرتهم من يصلح للحكم من بعده فإن سابور وهو أصغر الأبناء العشرة لا يزال طفلاً ، ولا يمكن الاعتماد عليه ، فهبّ سعيد بن أبي سعيد الذي كان قد نحي عن الزعامـــة سنة ٣٠٥ هـ. بعهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله ، وفرض نفسه أميراً على القرامطة ، وبهذا انقسم القرامطة إلى معسكرين :

الأول :ويميل إلى الفاطميين ويقطع إلى الحكم ، وعلى رأسه أبناء أبي طاهر ومعهم عدد غير قليل من كبار القرامطة ووجوههم ، وذوي النفوذ فيهم ، ويرى هذا الفريق انه من الواجب على القرامطة أن ينضووا تحت لواء الفاطميين كما كانوا في عهد أبي طاهر .

أما المعسكر الثاني :وهم الطبقة الحاكمة ، وتتمثل في أحمد بن أبي سعيد وأخوته ومن انضمّ إليهم من القرامطة ،

ويرى هؤلاء الاحتفاظ برئاسة دولتهم القرمطية وتوجيهها التوجيه الذي يعود بالنفع على القرامطة أنفسهم ، رضيَ بذلك الفاطميون أم لم يرضوا . . . وافقت سياستهم الفاطميين أم خالفتها فقد كان هذا الفريق ينظر إلى الأمر من ناحية المصلحة الخاصة لا من ناحية المصلحة العامة التي يشترك فيها القرامطة والفاطميون على السواء .

وقد ظلّت تلك الأحوال سارية منذ موت أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ ، وقد تم في خلال تلك الفترة تحقيق وجهة نظر القرامطة الحكوميين ، فتمّ التقرب بين هؤلاء ، وبين عناصر أخرى مضادة للفاطميين كالعباسيين ، وابن رائق ، والبربريين ، والحمدانيين وغيرهم . كما أصبحوا في بعض الأوقات من أعوان البويهيين .

وإزاء هذا الحال كان لا بد للفاطميين من الاعتماد على الفريق الثاني ، وهم حزب سابور بن أبي طاهر ، وقد شعر سابور ان ابن عمه أحمد بن سعيد قد اندفع في سياسة إقرار شؤون القرامطة في بيته هو ، ضارباً ببيت سابور عرض الحائط ، ولذلك أسند أحمد هذا إلى ابنه الحسن الأعصم قيادة حملة هامة على بلاد عُمان ، ثم أسند إليه سنة ٣٥٣هـ حملة أخرى تعرف بحملة طبرية ، وقد انتصر فيها الحسن بمساعدة الحمدانيين

على الحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيدي صاحب الشام وقتئذ ، فرماه سابور وأنصاره باتّهامات خطيرة كاغتصاب قدر كبير من الغنائم والأسلاب ، ومسايرة الحمدانيين ... الخ. وكان من أثر ذلك أن اشتدّ ساعد فريق سابور من أنصار الفاطميين ، وطالبوا بالحكم لأنفسهم ، وتمكنوا من عزل أحمد بن أبي سعيد سنة ٣٥٨ ﻫ ، ولكن سابور لم يتمتع بالحكم طويلاً فقتل ، واستبدّ بيت أحمد بحكم القرامطة من جديد .

ومهما يكن من أمر فقد أدّى قتل سابور إلى ضعف حزب الفاطميين لدى القرامطة مما أدّى إلى قيام نزاع عنيف فيما بعد ، وظهور الحسن الأعصم على رأس الفريق الحاكم ، فحكم منذ سنة ٣٥٩ ﻫ إلى سنة ٣٦٧ ﻫ وكان آلة بيد العباسيين والحمدانيين وبني بويه يتلاعبون به ويسيرونه كيفما شاءو وأرادوا . . . والحسن الأعصم هو القائل حينما فرّ منهزماً من مصر أمام القائد جوهر الصقلي :

زعمَت رجال العرب أني هبتها
فدمي إذن ما بينهم مطلول
يا مصر إن لم أروِ ماءك من دمٍ
يروي ثراك فلا سقاني النيلُ

أمّا سبب الحرب المباشر بين القرامطة والفاطميين سنة ٣٥٩هـ. فسببه منع الفاطميين الضريبة الّتي كان يدفعها الحسن بن عبد الله بن طغج إلى القرامطة عن دمشق منذ سنة ٣٥٧ هـ . والواقع فإن تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة الداخلية كان له أثر كبير في قيام تلك الحروب . يؤيد ذلك ما ذكره ابن خلدون من أنه لمّا استولى جوهر الصقلي على مصر . وجعفر ابن فلاح على دمشق طالب الحسن الأعصم بالضريبة الّتي كانت تدفع له عن دمشق فمنعوه ونابذوه . وكتب له المعز لدين الله من المغرب وأغلظ له كما دسّ لشيعة أبي طاهر وبنيه من يطمعهم بأن الأمر لولده . واطلع الحسن على ذلك ، فخلع المعز سنة ٣٦٠هـ. وخطب للمطيع العباسي في منابر بلاده ، ولبس السواد .

وكذلك ترجع هذه الحروب إلى فرار كثير من زعماء الشام إلى الحسن الأعصم واستنجادهم به . ومن هؤلاء ظالم بن موهوب العقيلي الذي قام فيما بعد بدور كبير في تلك الحروب ، ولكن هنا لا بد من السؤال . لماذا قصد هؤلاء الحسن الأعصم ، واستنجدوا بالقرامطة على الفاطميين . في وقت كانوا يعلمون كما كان يعلم كل الناس في ذلك الحين أنهم جميعهم ينهلون من نبع واحد ؟ ومن هنا ندرك العداء المستحكم بين

الأعصم القرمطي والفاطميين ذلك العداء الذي أحسّه أهل الشام ، فقصد زعماؤهم القرامطة ليحتموا بهم من الفاطميين ، ونذهب إلى أبعد من ذلك ، فإن العداء كان قائماً قبل استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٣٥٩ هـ . والدليل على ذلك ما أشار به جوهر في ذلك المنشور الذي أذاعه على المصريين ، والذي أعلن فيه سخط الفاطميين على القرامطة لاعتدائهم على الحجّاج ، يضاف إلى كل ذلك تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة الداخلية والعائلية كأسنادهم رئاسة القرامطة إلى بيت أحمد بن أبي سعيد . وكان يعز على ذلك البيت أن يتدخل القائم الفاطمي وهو بالمغرب ، فيولي بيت أبي طاهر العهد ويبقي الرئاسة في بيت أحمد هذا ، كما عزّ عليهم أن يروا المعز لدين الله يثير الخلاف بينهم ، وبين أبناء أبي طاهر . أما استبداد الأعصم بعرش القرامطة دون الرجوع إلى الفاطميين أو بلا أخذ موافقتهم ففيه بوادر الثورة عليهم ، ونبذهم ، والانفلات من قيودهم ، وأنظمتهم التي كانت سائدة منذ عهد عبيد الله المهدي . . .

أجل . . . كانت سياستهم ترمي إلى تعيين رؤساء القرامطة الموالين لهم ، وإبعاد المشبوهين ، والمشككين ، وقد رأينا كيف عزل القرامطة سعيد بن أبي سعيد ، وولوا مكانه أبا طاهر سنة ٣٠٥ هـ . وعزلوا للمرة الثانية بعد موت أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ . وولوا مكانه أحمد بن أبي سعيد ،

وقلدوا سابور بن أبي طاهر ولاية العهد من بعده كما تقدم ، وكانت هذه التدابير وغيرها بوادر لم يطمئن إليها البيت القرمطي الحاكم .

ثم أليس في قتل سابور بن أبي طاهر على يد أحمد بن ابي سعيد معنى الثورة على الفاطميين . وهم الذين كانوا قد ولوه العهد ؟ وهل أقر الفاطميون تعيين الحسن الأعصم كما كانوا يقرون كل تعيين سابق ؟

في الحقيقة : لم نقف من المصادر التي بين أيدينا على أن الفاطميين هم الذين عينوا الأعصم . أو أنهم أقروه على هذا التعيين . بل الذي نعلمه أن الفاطميين لم يكونوا راضين عن هذا التعيين . وأنهم كانوا يثيرون العداء بين بيت أبي طاهر ، وبيت الأعصم وذلك من حين إلى حين . من هنا نستطيع أن نقول :

إن السبب الرئيسي في قيام هذه الحروب الدامية بين القرامطة والفاطميين . وهم جميعاً من عرق واحد كما نعلم . يرجع إلى تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة ومحاولاتهم اسناد الرئاسة إلى من يكون موضع ثقتهم .

من جهة أخرى ليس بعيداً أن يكون للعباسيين والبويهيين

أثر في اذكاء تلك الحروب العائلية ، ولا عجب في ذلك فهم قد عجزوا عن صد الفاطميين ، والروم من قبلهم عن غزو بلادهم . فلا يبعد إذاً أن يثيروا حكومة القرامطة على الفاطميين لإشغالهم بأمور جانبية ، خاصة ، وأن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالاً حيوياً لهم منذ أوائل القرن الرابع للهجرة . وزاد تعلقهم بهذه البلاد بعد انتصارهم على الاخشيديين في موقعتي طبرية سنة ٣٥٣ هـ. ودمشق سنة ٣٥٧ هـ . فمن هنا ليس غريباً أن يعتبر القرامطة سادتهم الفاطميين دخلاء عليهم في هذه البلاد ، وسنرى أن العباسيين والبويهيين بذلوا جهوداً جبارة في إثارة المنافسة بين هؤلاء وأولئك ، مما يؤكد أن الحرب بين القرامطة والفاطميين كانت في حقيقة الأمر حرباً بين السنيين والفاطميين ، أو بين الفاطميين وأتباعهم بدافع من السنيين .

من هنا يمكننا القول :

بأن مطامع الفاطميين في الشرق ، اصطدمت بمطامع القرامطة ، وعلى الأخص بمطامع الطبقة الحاكمة ، وكان من سياستهم أن يبدأوا بفتح مصر أولاً ثم يفتحون الشام بعد ذلك ، ولاتخاذها جسراً يعبرون منه لفتح بغداد نفسها ، ولم يكن القرامطة يعتقدون أن كائناً من كان يستطيع أن يقف في وجههم

في الميادين ، أو يصدهم عن تحقيق سياستهم خاصة وقد أصبحوا سادة على البلاد الممتدة على شاطىء الخليج الفارسي الغربي من عُمان إلى مصب نهري دجلة والفرات بما فيه الصحراء . فأصبح من حقهم أن يعترضوا في سنة ٣٤٦هـ على معز الدولة بن بويه ، لاجتيازه هذه الصحراء دون الرجوع إليهم ، كما أنهم قد أصبحوا سادة على بلاد الشام ، وأصبح حكامها من الإخشيديين يدفعون لهم جزية سنوية . وكان يغذي تصادم مطامع الفريقين كراهة الهيئة الحاكمة من القرامطة ، وتدخل الخلفاء الفاطميين في شؤونهم . والتجاء بعض زعماء الشام إليهم ، واغراؤهم إياهم بحرب سادتهم الفاطميين كما كان لتدخل الخلفاء العباسيين بين الفريقين أثر كبير في هذا السبيل . أضف إلى ذلك عاملاً آخر هو الناحية المادية فقد حرمت حكومة القرامطة ضريبة ضخمة كانوا يتمتعون بها ، فهذه العوامل مجتمعة أذكت نيران الحرب بين الفاطميين والقرامطة .

ومهما يكن من أمر فإن الحسن الأعصم أعد لهذه الحروب عدتها ، فبين لقومه تدخل الفاطميين في شؤون جماعته . كما أثار عوامل الحقد في نفوس أنصاره . ثم أنه طرد كل من اشتبه في إخلاصه لسياسته الانفصالية كأبناء أبي سعيد وأنصارهم

وعمل على أن يستمد المعونة من الخارج . ونحن نعلم أن جماعة من زعماء الشام ، وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العقيلي كانوا قد لجأوا إليه ، كما نعلم أن العباسيين كانوا منذ سنة ٣٢٧ هـ على وفاق مع القرامطة ، وأن الحمدانيين أصبحوا من أصدقائهم وحلفائهم ، وأن الاخشيديين ، والكافوريين كانوا قد فرّوا إلى ديار الحمدانيين ، لهذا كان على الحسن الأعصم أن يستعين بهؤلاء جميعاً . . . وقد نجح نجاحاً باهراً في هذا السبيل .

وفي سنة ٣٦٠هـ استعان الأعصم بالخليفة المطيع العباسي ، واستمد منه ، ومن البويهيين المال والرجال . ووعدهم باسترداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين على أن يحل القرامطة محل الفاطميين في حكم هذه البلاد . وقد لبّى العباسيون والبويهيون مطلبه ، ولم يمتنع المطيع العباسي .

وذكر التاريخ :

إن القرمطي سار إلى بغداد ، وسأل المطيع على لسان عز الدولة بختيار أن يمده بالمال والرجال ، ويوليه مصر والشام ليخرج الفاطميين منها ، فامتنع المطيع وقال :

كلهم قرامطة ، ويدينون بدين واحد ، فأما الفاطميون فقد أماتوا السنن ، وقتلوا العلماء . وأما القرامطة فقد قتلوا الحجّاج ، واقتلعوا الحجر الأسود .

وذكرت بعض المصادر :

إن القرامطة بعثوا أبا طريف عدي بن محمد بن الغمر إلى عز الدولة بختيار يطلبون المساعدة على الفاطميين بالمال والرجال ؛ فأعطاهم ألف ألف درهم ، وألف جوشن ، وألف سيف ، وألف رمح ، وألف قوس ، وألف جعبة وقال :

إذا وصل الحسن الأعصم إلى الكوفة فيحمل إليه جميع ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن بغداد رحبت بهذا التحالف وأمدت القرامطة بالمال والسلاح والرجال . وسمحوا لجنودهم بالتطوع في جيشه ، وشجعوا الذين فروا إليهم من الاخشيدية والكافورية على الانضواء تحت لوائه . كما أن الحسن الأعصم أخذ من الأعراب جنوداً كثيرين بالأموال التي استلمها من العباسيين .

وسار الحسن الأعصم أيضاً إلى الكوفة . وأرسل بختيار الديلمي أحد ملوك الدولة البويهية في طلب السلاح والمساعدة ، فأنفذ إليه خزائن سلاح من بغداد ، وكتب له على أبي تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم . فرحل الحسن من الكوفة حتى أتى الرحبة على نهر الفرات وعليها

أبو تغلب بن حمدان ، فحمل إليه المال المسبّب له به عليه وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول :

هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسي ، وأنت تقوم مقامي فيه ، وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إليّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك .

وهكذا تألّب السنيون ، والشيعيون من بني بويه ، وبني حمدان ، والقرامطة على الفاطميين . وآثر كل منهم المنفعة الشخصية ، فالعباسيون كانوا يخشون على ملكهم ، وقد وجدوا في حركة الأعصم تفريجاً عن كربتهم ، والبويهيون يخشون على نفوذهم السياسي ، وأن يحل الفاطميون الأقوياء محل العباسيين الضعفاء ، فيقضون عليهم ، ويبعدونهم ، ويزيلون كل ما لهم من نفوذ في الدولة ، أمّا الحمدانيون فيخشون اقتراب الفاطميين الطامحين من عاصمتهم حلب ، وما يجاورها ، وكانوا يعلمون بأن ليس وراء فتح الشام إلاّ العراق .

وعندما انتصر جوهر الصقلي في معركته التي خاضها ضد القرامطة على أبواب القاهرة قضى على الروابط التي تربط الأعصم بالاخشيدية والكافورية ، فانفضوا من حوله ، ودخل أكثرهم في طاعة الفاطميين ، وبهذا تخلصت مصر من القرامطة إلى حين .

قد ذكر التاريخ :

إنه قد بلغ من اهتمام جوهر بالقضاء على الحسن الأعصم حداً انه: خصص جائزة كبرى لمن يأتيه برأسه . وكان لانتصار جوهر رنة فرح شاملة تجلت في وصف أحد الشعراء :

كأنّ طراز النصر فوق جبينه
يلوحُ وأرواح الورى بيمينه

ومهما يكن من أمر فإن صراع الأعصم مع الفاطميين كان صراعاً عنيفاً . وبلغة أصح يمكن أن نسميه صراع الفاطميين مع القرامطة المتطرفين . ويجب أن لا يسهى عن بالنا بأن العوامل الخارجية لعبت دورها في هذا المجال ، ولكن سياسة الفاطميين ومهارتهم وبعد نظرهم أثر في هذا الصراع الذي لعبت فيه السياسة الدور الأول . وتركت السيف بعيداً للمرحلة الأخيرة كيف لا فقد تمكنوا من إثارة الشقاق في صفوف أنصار الحسن الأعصم من العرب كظالم العقيلي وحسّان الطائي ، ثم فرقوا بين أسرة آل الجنابي وقسموها إلى فريقين متنابذين .

وصفوة القول :

فإن قرامطة البحرين الذين انضووا تحت لواء الحسن الأعصم في حروبه مع الفاطميين كانوا على شيء من الحماسة الحربية وذلك بسبب العقيدة الدينية . فقد كان أكثرهم يعتقد بأن

قتال الفاطميين هو خروج على المذهب ، أو بلغة أصح هو كفر ، فكنّا نرى الكثيرين من جنوده يهرعون إلى الانضواء تحت لواء الفاطميين بمجرد أن سنحت لهم الفرصة ، وخاصة في معركة فلسطين الأخيرة التي حضرها الخليفة العزيز بالله .

ومهما يكن من أمر ، فلو أن القرامطة كانوا صفاً واحداً ، واتحدوا مع الدولة الفاطمية عندما استولت على مصر وفلسطين والشام ، إذن لزالت الدولة العباسية من عالم الوجود ، ولاتسعت الأمبراطورية الفاطمية حتى شملت العالم الإسلامي ، ولكان قد تغيّر وجه التاريخ .

في ظلال الفكر الفاطمي

رتّب الفاطميون لدعوتهم . ولدولتهم نظاماً دقيقاً محكماً لا نكاد نرى له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها . ولعل الفاطميون هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم . ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم أي أثر وخاصة بعد أن تمّ لهم الأمر وأقاموا دولتهم ، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لآرائهم في الأقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة معترف بها .

أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، وهذا ما جعلهم يتفوقون في المجال السياسي ويفتحون الأقطار والأمصار . وبالرغم

من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي ، وكان الأئمة الفاطميون ودعاتهم يتخذون السّر تقية على أنفسهم خوفاً من بطش الأعداء ، وإفساد المخططات .

وبالنسبة لعصرهم فإن العلماء اعتبروه من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية في ذلك العهد درجة كبرى من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر ،أو الذين وفدوا عليها،ولكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم .

وكنّا ذكرنا في أكثر من مكان أن الخلفاء أنفسهم كانوا يقربون العلماء ، ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهلّوا أنفسهم له،فكانوا بذلك أسبق ممّا كان عليه كثير من الدول،وهكذا فإنهم أفسحوا المجال لهؤلاء بأن لا يفكروا بأرزاقهم ، بل وجدوا ملاذاً يأويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، ويجعلهم في حماس لمواصلة البحث والدرس والتأليف ، وإننا نرى أن بعض العلماء من الأقطار الأخرى ممن كانوا يحملون النقمة على الفاطميين ، يفدون على مصر ، ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة في مجتمعاتها العلمية والأدبية ، ويخيّل إليّ أن السبب الذي من أجله شجع الفاطميون العلم والعلماء ،

هو أن المذهب الفاطمي نفسه كان يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء ؛ وعن طريق العلم ، والجدل . والمناظرات استطاعت التعاليم الفاطمية أن تنتشر في كل مكان من العالم الإسلامي . وخاصة في الديار المصرية .

فعقيدة الفاطميين كانت تقوم على العلم والعمل ، وقد أثرت الفلسفة اليونانية ، والمـــذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلمائها ، وكانوا يهتمون بهذه الألوان من الدراسات الفلسفية . إمّا لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم . أو للرد عليها . وتهجين هذه الآراء القديمة . فالفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين . فهم قد توسعوا في دراسته . والوصول إلى أصوله . وجوهره .

ومن الواضح أنه كان للفاطميين دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ، ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى وقد التفّ حولهم عدد كبير من المسلمين وأخذوا عنهم علوماً شتى وهذا معناه أن أفكارهم لم تؤثر في مصر وحدها بل أثرت في جميع البلدان الإسلامية . فالداعي الفاطمي كانت معلوماته لا تقتصر على النواحي الإسلامية من فقه . وحديث . وتفسير . وتأويل . وغيره . بل تتعداها إلى معرفة أصول المذاهب القديمة من إسرائيلية ، ومسيحية . ووثنية . وزرادشتية ،

وقد صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية ، ونشروها على أيدي دعاتهم العباقرة الماهرين .

ولم ينس الفاطميون العلوم الأخرى ، ولنأخذ مثلاً علوم اللغة العربية ، فنراهم قد وجهوا إليها اهتماماً ملحوظاً ، وعناية خاصة ، وقد عرفنا بأن الخليفة العزيز بالله كان يجمع علماء اللغة والآداب للمناظرة بين يديه ، فكانت مثل هذه البادرة التي وجهها الخلفاء الفاطميون سبباً في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية ، وقد شجعت علماء مصر على الإكثار من التأليف ، وإنتاج الكتب في مختلف العلوم والفنون .

ومن الواضح أن علماء مصر في ذلك الوقت كانوا يشرحون ، وينقدون ما خلّفه علماء المسلمين قبلهم من هذه العلوم العربية ، ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في ذلك العصر آراء أصيلة تميزهم عمن سبقوهم ، وليس ذلك بغريب ، فالتاريخ ذكر لنا أن العلوم إذا تمّ تكوينها ووضع قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك سواء أكانت طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها ، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بها ، وهذا ما كان

عند اليونان بعد عصر الفلاسفة ، وهذا ما حدث أيضاً للمسلمين في جميع أقطارهم ، بعد أن وضعت قواعد اللغة ودوّن الأدب العربي بألوانه وفنونه ، وبعد أن صيغت القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب ، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة . وقواعد متباينة عن القديم . مرّت بها مصر الفاطمية ، بل مرّت بها جميع الأقطار الإسلامية وكانوا لا يزالون يعيشون على هذه الأصول دون أن يستطيعوا التحرر منها ، فقواعد اللغة التي دوّنها سيبويه ، وأصول الصرف كما تركه ابن جني ، وعروض الخليل بن أحمد ، وأصول الفقه كما دوّنه الشافعي ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وابن حنبل ، هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية حتى الآن ، بالرغم من أن عدداً كبيراً من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلاً يلائم حياتنا الحديثة .

وبالرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء ، وإعطائهم التشجيع والترغيب لتأليف المؤلفات الكثيرة فهذه المؤلفات كانت تمثل التراث العلمي للعصور التي تلت عصر الفاطميين ، ولكن لم يكن يظهر عليها الطابع المصري . ولعلّ سبب ذلك رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلباً للعلم . فمصر بموقعها

الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب ، بل طريق الغرب إلى الأراضي المقدسة ، وهذا الموقع الجغرافي هو الذي جعل مصر مركزاً هاماً لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس ، والمغرب ، وصقلية كانوا مضطرين إلى القدوم إلى مصر في رحلاتهم لتأدية فريضة الحج ، أو في رحلاتهم لطلب العلم في العراق وفارس ، وقد تطول مدة إقامتهم في مصر أو تقصر ، وعلى الحالتين فالفرصة مهيأة أمامهم ليأخذوا عن علماء مصر ، أو يلقون على المصريين ما عندهم من علوم وفنون وآداب ، فتتلاقح الأفكار ، وتمتزج ، وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسي ، ومصري ، ومغربي ، وصقلي .

أجل ... إن تلك الرحلات الكثيرة كانت سبباً في ألاّ تتمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار ، حتّى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشارقة ، وكتب المغاربة إلاّ من طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم ، أمّا عن الناحية الموضوعية للكتب ، فمن الصعب ، والعسير أن نصل إلى نتيجة يطمئن إليها الباحث ، والأقطار العربية الّتي كانت تتنازع فيما بينها السياسة والمذاهب الدينية ، وتنشب فيها الحروب المختلفة كانت تربطها وتوحدها هذه الحياة العلمية ، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علوماً واحدة

لا فرق بين قطر وآخر . ولاتزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخالصة . والعلوم الإسلامية . وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية أن تتم وحدتها في مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجدهم القديم بهذه الوحدة .

وإلى جانب ذلك كانت هناك دراسات عربية في علم النحو ورواية للأدب القديم . وشرحه . ونقده . وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر . وكأني بهؤلاء العلماء قد أصبحوا كعبة يفد عليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

ولم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر . لأنها وجدت في مصر منذ عهود الإسلام الأولى . فكانوا يقرأون القرآن الكريم عن الصحابة ، والتابعين . ويهتمون بإعجامه على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي ، وعبد الله بن أبي إسحاق . حتى إذا دوّن علم النحو وظهر كتاب سيبويه ونحاة الكوفة والبصرة ، أقبل المصريون على الأخذ عنهم . واطّرد نمو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر . وفاضت على غيرها من بلدان المغرب . والأندلس . وقد استمر تيار الدراسات هذه

بمصر في العصر الفاطمي ، والعصور التي تلته . وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم ، وعرفوا به . وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات . ويحبسون المرتبات للعلماء ، وكيف حرصوا على اقتناء الكتب اللغوية ، والنحوية . وجعلوها مع غيرها من الكتب بين أيدي العلماء والمتعلمين . فلا غروّ إذا ما رأينا عدداً كبيراً منهم ينبغون في هذه العلوم . ويصنفون الكتب الكثيرة في هذه الفنون ، ويكفي أن نلقي نظرة على كتب التراجم لندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات ، وكيف تضاعف عدد الكتب التي ألفت فيها .

وكما كان الفلاسفة يجتمعون للمباحثة . والمذاكرة في فنونهم كذلك فعل علماء النحو واللغة ، فقد كانوا يجتمعون في دار العلم الفاطمية بالقاهرة ، وتقوم فيما بينهم المباحثات ، والمذاكرات . وقد بلغ من اهتمام الخليفة العزيز بالله بعلوم اللغة والنحو أن جعل في ديوان الإنشاء لغويين ، ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتّاب من رسائل حتى لا يظهر في كتابات الكتّاب لحن في اللغة . أو خطأ في النحو .

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في ذلك العصر « القزّاز » النحوي الذي استخدمه العزيز بالله . وقيل أن العزيز طلب إليه أن يؤلف كتاباً يجمع فيه سائر الحروف التي أشار إليها النحويون في قولهم : ان الكلام اسم . وفعل . وحرف جاء

لمعنى . وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى . وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم . وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة . فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب . فبلغ ما جمعه ألف ورقة .

وذكر التاريخ :

« إن القزاز بذلك فضح المتقدمين . وقطع ألسنة المتأخرين »

إذن فهذا النشاط في درس علوم اللغة في مصر الفاطمية حقيقة واقعة . فقد كثر عدد العلماء . وكثر إنتاجهم كما تعددت أماكن هذا الدرس . ففي الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس . وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب . وفي جامع عمرو بالفسطاط كانت حلقات للدرس والتدريس تستمر . ولم تكن القاهرة . والفسطاط مراكز للدرس في مصر فحسب . بل كانت الاسكندرية أيضاً تذخر بالعلماء والطلاب .

ولا بد لنا من التحدث عن العلوم الفلسفية بالنسبة للفاطميين في مصر . فقد رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات ، والآراء الفلسفية . والدينية القديمة . ويصبغون هذه الآراء . والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التي بشروا بها فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير . وفي الأخذ عن القديم . والاجتهاد

في المذهب ما لا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، ولكن هذا الاجتهاد، وهذه الحرية الواسعة في الفكر كانت مقيدة بموضوع «الإمامة» فكافة مؤلفات الفاطميين، ومجالس حكمتهم كانت تدور قبل كل شيء حول الإمامة، وكأن الفاطميين قد أعادوا إلى مصر الحياة الفكرية التي كانت سائدة في عهد بطليموس بالاسكندرية، إذ أن تلك الدراسات كانت استرضاءً للحكام. وإشباعاً لغرورهم بإسناد الفضائل إليهم. وإلى أجدادهم. بيد أن الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم السياسي. فأدخلوا في الدين ما وصلت إليه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وآراء الأقدمين. وكل هذا لاسباغ الفضائل على الأئمة من أهل البيت، فهم قد أعطوا الفكر حريته المقامة إلى أبعد الحدود. ولكنهم قيدوها بهذه الإمامة. وكانت هذه الحرية سبباً في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر وظهور عدد كبير من الفلاسفة.

ومهما يكن من أمر. فقد كانت الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها. وألوانها. وفنونها. وتعددت مراكزها في مصر. وكانت حلقات الدرس في المساجد، أو الدور في القاهرة. والفسطاط. وفي الإسكندرية. وتنيس. وأسوان. وقوص في الجنوب، كما كان أمراء

الأقاليم . والولاة يجمعون حولهم العلماء والشعراء . وقد تحدث التاريخ عن بعض هؤلاء الأمراء . وعن مجالسهم . وشعرائهم . فالحياة كانت مزدهرة في مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب . فلا غرو إذا ما تبوأت مصر مركز الزعامة في هذا المجال في العالم الإسلامي ، والعربي .

وعرف الفاطميون بثراء دولتهم في مصر . وبذخهم الذي لا مثيل له . فقد أكثروا من استحداث الأعياد والمواسم . وافتتنوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم حتى يخيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعياداً ومواسم .

أما أعيادهم الرسمية فكانت :

مولد النبي (صلعم) . ومولد علي . وفاطمة . والحسن . والحسين . والخليفة الحاضر . ويتبعها رأس السنة ، يوم عاشوراء . أول رجب . أول شعبان ، أول رمضان ، غرة رمضان ، عيد الفطر . عيد النحر . عيد الغدير ، موسم فتح الخليج . يوم النيروز . يوم الغطاس . ويوم الميلاد .

وفي هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم ويتنافسون في الإجادة والإبداع ، وينعمون بأخذ الجوائز والصلات .

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية ، فالفاطميون وخاصة في عهد العزيز بالله أكثروا من المباني والمنشآت وعنوا بإحداث المتنزهات والمناظر والإكثار منها للدلالة على حبهم للفنون المختلفة . فهذه البساتين التي جمّلوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها لم تكن خاصة بهم فقط بل كان لغيرهم من الرعية ، فهم قد أباحوا للناس دخولها ، والتمتع بظلها ، ومناظرها ، وجوها . فأوجد ذلك عند المصريين لوناً من ألوان الحياة الفاخرة البهيجة ، وسمت النفوس إلى حب الطبيعة والجمال ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى المتنزهات جزءاً هاماً من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يقصفون ، ويطربون ، وينعمون بجمال الرياض ، وأريج الزهور . ومنظر المياه . وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض الغناء جماعات يتطارحون الشعر ، ويتبارون في الإنشاد ، ويستوحون من جمال الورود ، والمياه ، والطبيعة وحي شعرهم . ومما يجب أن يذكر أن سكان مصر في تلك

الفترة كانوا على حظ وافر من الغنى والثراء يحسدهم عليه العباسيون وهم في أوج مجدهم ، وسعة سلطانهم . وكان الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب مما يملكون من مال ومتاع .

وهكذا فقد اتخذوا من الحياة أبهجها . وأكثروا من إقامة المآدب ، واستدعاء الخلاّن ، والسمّار . وهذا كله كان وحياً للشعراء بالقريض الرقيق .

ومن عوامل ازدهار الشعر أيضاً في هذا العصر الفاطمي أن القائمين اتخذوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذه الأحزاب السياسية في أيامنا هذه من بعض الصحف مادة للتعبير عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها .

ومهما يكن من أمر فكل ما ذكرناه إن دلّ على شيء . فإنما يدل على أن العصر الفاطمي كان خصباً في الإنتاج العلمي . والفلسفي ، والأدبي . بحيث استطاع رجال الفكر في مصر الفاطمية أن يقفوا بجوار غيرهم من شعراء وأدباء الأقطار الإسلامية . فالعوامل التي تحدثنا عنها ، والآثار التي قرأناها . وما قاله الرواة والمؤرخون عن ذلك العصر الذهبي . يؤيد ما قلناه : إن الحياة الفكرية في مصر الفاطمية كانت في أعلى درجة من درجات الرقي .

وقبل أن نصل إلى نهاية المطاف نقول :

إن أخيلة الأدباء في ذلك العصر ، وتعبيرهم ، وتصويرهم بيئتهم وألوان حياتهم جاءت متناسبة مع واقع حياتهم . فالفاطميون في إنتاجهم الأدبي استخدموا الألوان الحسيّة ، واستعملوا الجناس . والطباق ، وألوان الفنون الأخرى ، وجميعها منتزعة من الحياة الفاطمية . فهي على العموم تمتاز بالغلو في كل شيء . . . غلو في اللهو . . . وغلو في التجمل : والتزيين، وفي الملبس ،والمسكن ، وفي الأعياد ، وذكريات المآتم ، ولهذا كان لا بد لهم من استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم اسراف الفاطميين في حياتهم ،واستخدام المحسّنات البديعية أيضاً . ويبدو أن دقة الحس . ورقة الشعور . والميل إلى الفكاهة ، وخفة الروح . كلها خصائص امتاز بها شعراء وأدباء ذلك العصر ، وغير خافٍ أن الفاطميين في مصر عندما جاؤوا إلى مصر ،ركّزوا اهتمامهم على النواحي الفكرية ،وعملوا على السير بها قدماً ، فضاعفوا النهضة بالعلم ، وأذكاء شعلته في البلاد حتى كان للحركة العامية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة . وفي مصر الفاطمية بوجه خاص ، ومما لا جدال فيه أن الفاطميين عنوا بالكتّاب عنايتهم بالشعراء ، ذلك أن اتساع ملكهم ، وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم

اضطرّهم أن يوجهوا اهتمامهم إلى العناية بالدواوين المختلفة وذلك كي لا يصدر عن كتّابها ما يمجه الذوق .

وهكذا فإن عصر العزيز بالله كان على جانب كبير من الازدهار الأدبي والعلمي ناهيك عن دور الدولة الفاطمية العالمي في عهده ، وما لعبته من أدوار على المسرح العالمي . وكيف أصبحت في فترة قصيرة معززة الجوانب . عظيمة الأهمية ، مهيبة الاسم .



الخليفة الأديب

لا يكاد يعرف في تاريخ العالم الإسلامي أسرة كان لها من الآثار في الحياة الفكرية ، ما كان للأسرة الفاطمية . فقلّما نرى بينهم رجلاً واحداً إلاّ ويمتلك الثقافة والعلم والأدب هذا فضلاً عن الشاعرية . والعزيز بالله أحد فروع هذه المجموعة فقد روى الثعالبي في اليتيمية ، وكتاب النجوم الزاهرة قوله وهو يذكر أحد أولاده في عيد من الأعياد :

نحنُ بنو المصطفى ذوو محنٍ
يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنام محنتنا
أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرحُ هذا الورى بعيدهم
طرّاً وأعيادنا مآتمنا

ففي هذه الأبيات يظهر العزيز بالله وهو يمثل العاطفة

الصادقة المعبرة عن ألم دفين وحزن كمين . ونراه لم يحزن لفقد ولده فحسب . بل يتألم لما أصاب أهل البيت عامة من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم .

ومن شعره أيضاً :

ولمّا رأيت الدين رثّت حباله
وأصبح ممحوّ الضـيا والمعالم
وأصبحت الأشرار من كل أمةٍ
تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكم في أموالهـا ودمائها
بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبتُ لدين الله غضبة ثائرٍ
غيور عليهـا مانع للمحارم
وسيّرت نحو الشرق بحر كتائبٍ
تموج بـأبطالٍ رجالٍ قماقم
يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا
وبالمشرفيّات الرقـاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافعٍ
وأشرف خلق الله من عهد آدم

لي الشرف العالي الذي خضعت له
رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فُتحت أبواب كل هداية
ومنّـــا بحمد الله خير الخواتم
فقل لبني العباس والقول واضح
بأنهم أسرى بـــأيدي الأعاجم
لقد غصبوا من آل مروان حقنا
وميراثنـــا سحقاً لظالم ظـــالم
ولم يحفظوا فينـــا وصايا محمد
ولا ما تداعوا من مناسب هاشم
سنسقيهم كأساً كما قد سقاهم
أوائلنـــا والله أعـــدل حاكم

وذكر أن منصور بن مقشر النصراني طبيب العزيز بالله اعتل سنة ٣٨٥ هـ. وتأخر عن الركوب مع الخليفة ، فلما تماثل من علته كتب إليه رقعة بخطه :

طبيبنا سلمه الله :

سلّم الله الطبيب ، وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبك الله من عافية ، والله لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن

من الصحة في جسمنا ، فتمّم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها . ولا أشمت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ، ورد كيد من يريد الكيد في نحره . وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، وإقالتك العثْرة ورجوعك إلى أفضل ما عودك . وصلّى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلّم تسليما .

ولم أجد أبلغ من قصيدة الاسكندراني المعروفة بذات الدوحة في الخليفة العزيز بالله ، فهو يقول فيها :

إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن
بغير أبي المنصور لو كان يلثقُ
فباهت على الأيـام أيامه التي
تكاد لهـا صمّ الجنادل تورق
سحائب جودٍ لا يغيب غمامها
وبحر سماح بـالندى يتدفق
لئن فقد الناس المعز لدينـــه
فقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيـا علينـا بيمنه
فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا الجود ممنوعٌ ولا المجد خاملٌ
ولا العرق مقطوع ولا الفكر مطلق

تضوّع نشر العدل في كل بلـدة
ونشر ثنـاء الطيب للطيب يعبق
فضائل مولانا العزيز جليلـة
إذا عـد فضل فهو بالفضل يسبق
عليـه صلاة الله ما لاح كوكب
وما فاح في الأيك الحمام المطوّق

لقد عرف عن العزيز سعة صدره ، وطيبة قلبه ، ومحبته العفو عند المقدرة ، وقد يتجلّى كل هذا بما ذكره التاريخ :

بأن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا الوزير الأول يعقوب بن كلس بقوله :

قل لأبي نصر صاحب القصر
والمتـأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفـز
منه بحسن الثنـاء والذكر
واعطِ أو امنع ولا تخف أحداً
فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يـدري ما يراد بـه
وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى العزيز بالله فأجابه :

لقد أشركني في الهجاء . فشاركني في العفو عنه . ثم أنه عاد فهجاه وأضاف إليه الفضل بن الفرات قائلاً :

تنصّر فالتنصر دين حقٍ
عليه زماننا هذا يدلُ
وقل بثلاثة عزُّوا وجلّوا
وعطّل ما سواهم فهو عطلُ
فيعقوب الوزير أب . وهذا الـ
عزيز ابنٌ وروح القدس فضلُ

فشكاه الوزير يعقوب إلى الخليفة العزيز بالله . ولكنه أيضاً شمله بعفوه .

ووصلت إلينا رسالة كتبها العزيز بالله إلى أحد عماله في مصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة سنة ٣٦٧ هـ. وفيها الكثير من الخصائص الفاطمية سواء من حيث العقائد . أو من حيث الأسلوب . وهي :

من عبد الله . ووليه نزار . أبو المنصور . العزيز بالله . أمير المؤمنين إلى حسين بن القاسم :

سلام عليك . فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي

لا إله إلاّ هو ويسأله أن يصلّي على جده محمد نبيه . ورسوله صلّى الله عليه . وعلى الأئمة من عترته الأبرار الطاهرين المطهرين . وسلّم تسليماً .

أمّا بعد . . . فالحمد لله الملك العظيم العليم الحليم ، ذي الطول الكريم ، والمن الجسيم ، والعز المديد ، والمحال الشديد ، ولي الحق ونصيره ، وماحق الباطل ومبيده ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد ، والتحصين لأوليائه المتقين ، وخلفائه المصطفين الذابين عن دينه والقائمين بحقه ، والدالين على توحيده . الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حججهم وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدين في آياته ، الجاحدين لنعمائه ، المنزل رجزه ، وقوارع بأسه على من عصاه فحاده ، وصدّ عنه فناده ، القاضي بالعواقب الحسنى والفوز ، والنعمى لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه في أمره ، وفوّض إليه حكمه . . . كل ذلك فضلاً منه ، وعدلاً وقضاءً فصلاً . وهو الحاكم العدل الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ويصف أحد الكتاب في ذلك العصر حركات الخليفة العزيز بالله ، وانتقالاته في الميادين في إثر أعدائه فيقول :

فبعد ما طمع قادة الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وما

أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله . ومنهل وباله . ورحل عن بيسان رحيل من استعجلته البليّة واستدعته الرزيّة ، فحلّ بموضع يعرف بكفر سلام كافراً بحدود الإسلام متجرئاً على الله محارباً لنجل نبيه عليه السلام . وأقام بها متلدداً في حيرته ، متردداً في سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه إلى أن رحل فنزل بكفر سابا فأنبأه اسمها بما حلّ به من السبي المبيد ، والخزي الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة ، ونصب أعلامه المخذولة . وأقام صفوفه المغلولة ، وظهرت آلة الحرب اقداماً . وأخفى عن اللقاء احجاماً .

نهاية المطاف

الإصلاحات الداخلية في مصر بعهد الخليفة العزيز بالله فاقت حد الوصف . ويعزى سبب ذلك إلى سياسة الوزراء ، وطريقة تصريفهم الأمور . كما أن انصراف بعضهم إلى السهر على الحياة الاقتصادية والأمنية جعل لهم المكانة العليا في صدور المواطنين .

فهذا ابن كلس قد وضع كثيراً من الأسس التي سارت عليها الدولة في سياستها الداخلية خصوصاً في النواحي الاقتصادية التي كان فيها على جانب كبير من الخبرة منذ زمن في خدمة كافور الاخشيدي . وبعده عيّن العزيز عيسى بن نسطورس الذي ضبط الأمور ، وجمع الأموال ، ووفّر كثيراً من الخراج ، وأدار دفة البلاد بمهارة . واجتاز الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها بالرغم من المجاعات التي توالت أكثر من مرة . وعرف عنه أنه شجّع أصحاب رؤوس الأموال ، وذوي

وجملة القول : فإن العهد الزاهر الذي نعمت فيه الديار المصرية بعهد الخليفتين المعز والعزيز قد لا تفي به صفحات عديدة ، كيف لا وأن الآثار لا تزال باقية وشاهدة على تلك الحضارة الإسلامية التي أدخلها الفاطميون على مصر ، ولكن قاتل الله الحقد والتعصب؛أقول هذا وأنا أستعرض المكتبات الفاطمية التي خلفها هؤلاء الخلفاء بعد زوال دولتهم . فقد ذكر التاريخ :

بأنه لم يكن في البلاد الإسلامية داراً للكتب أعظم من التي كانت في القصر في القاهرة المعزيّة ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري وحده ، وذكر أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ، ويؤيد ذلك ما ذكره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بأنه لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر الفاطمي مائة ألف مجلد .

وروى التاريخ :

إنّ عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر كانت أربعون خزانة لا يصل إليها أحد ، وبعضها في خزائن القصر البرّانية ، وكانت تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية ، فمن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ، ولغة ، وكتب ، وحديث ، وتاريخ ، وفلسفة ، وكيمياء ،

وطب، وروحانيات. وذكر أمام العزيز بالله ان احدهم عنده كتاب «العين» للخليل بن أحمد فأمر خزّان كتبه فأخرجوا من الخزائن نيفاً وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه. وحمل إليه رجل نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائة دينار. فأمر العزيز بالله خازنه فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن العشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير. وهكذا كانت خزائن كتب القصر. ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن. وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم. وذلك تشجيعاً للعلم وللعلماء. ولا غروَ في ذلك فإن مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل. وإلى الاستزادة من جميع العلوم والآداب حتى يتسنى لدعاتهم أن يكاسروا خصومهم بالأدلة العلمية. وأن يتخذوا من سعة آفاقهم ومداركهم وثقافتهم مجالاً لكي يبزوا غيرهم ولكن اين ذهبت تلك الذخائر الثمينة. وأين ضاع ذلك التراث الذي حافظ عليه الفاطميون ؟

يذكر التاريخ :

بأن الدولة الفاطمية عندما انتهى أمرها. وتسلّم شؤونها صلاح الدين الأيوبي صدرت الأوامر إلى الجند وإلى الناس بأن يتصرفوا كيفما شاءوا بالمكتبات الفاطمية لأنها على حد

الزعم لا تحوي إلا الإلحاد والكفر . . . وهكذا فإن الأيدي الأثيمة امتدت إلى هذه الخزائن ، وأخذت تعبث بهذه النفائس ، فحمل قسم كبير منها وألقي في نهر النيل لدرجة أن مياهه اصطبغت باللون الأسود . كما أن آلافاً منها حملت إلى قرب الأهرام حيث أحرقت في مكان لا يزال يدعى « تل الكتب » وبدأ الجنود يخلعون جلود تلك الكتب بحيث جعلوا منها أحذية لهم . كما أن بعضهم كان يبيع أوراقها للورّاقين .

فأين نحن ؟ إن التاريخ لا يزال يذكر وعبارات السخط والاستنكار العنيف هي المسيطرة على الأقوال . . . هذا التاريخ يلعن التتر الذين عبثوا بمكتبة بغداد ، وهكذا بالنسبة للصليبيين الذين أحرقوا مكتبة آل عمّار بطرابلس . . . فماذا يقولون الآن وأمامهم هذه الصورة . بل هذه الجناية على الفكر والأدب وحبذا لو أنهم استثنوا من جريمتهم كتب الشعر ، والأدب ، والحكمة ، والطب . والكيمياء ، والفلسفة .

المؤرخون الفاطميون
وضياع آثارهم

عرفت مصر الفاطمية جملة مؤرخين كتبوا التاريخ الفاطمي فمنهم :

أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني . ولد بمصر سنة ٣٢٧ هـ وكان أبوه مؤرخاً وصديقاً لابن جرير الطبري . . . وهذا المؤرخ له من الكتب : سيرة كافور الاخشيدي ، وسيرة العزيز بالله الفاطمي . . . وتوفي بمصر سنة ٣٩٨ هـ . ولكن كتبه فقدت مع التراث الفاطمي .

وشهد العصر الفاطمي أيضاً المؤرخ الكبير الذي أخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين ، وهو : الحسن بن إبراهيم الليثي المعروف بابن زولاق . . . فقد كان من أعيان مصر سنة ٣٠٦ هـ ومن كتبه : سيرة محمد بن طغج الاخشيد ، وكتاب أخبار سيبويه المصري ، وكتاب سيرة كافور ، وكتاب

سيرة جوهر ، وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز ، وكتاب التاريخ الكبير على السنين ، وكتاب خطط مصر ؛ ولكن أكثر هذه الكتب فقدت أيام المحنة الفاطمية الكبرى ولم يبق منها إلاّ شذرات متفرقة في الكتب ، والحقيقة فإن المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن زولاق وتحدثوا عن مصر أخذوا عنه الكثير . كابن خلكان . والنويري . والعسقلاني ، والسيوطي ، وابن دقماق، وأبو المحاسن ، وياقوت وغيرهم، وهؤلاء جميعهم كانوا يطلقون عليه «مؤرخ مصر » وقد تكون ميزة ابن زولاق صدق أخباره كماذكر عنه .

ومن مؤرخي ذلك العصر الأمير المختار عز الملك محمد ابن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد المعروف بالمسبحي ، الحرّاني الأصل . المصري المولد والنشأة . ولد سنة ٣٦٦ ﻫ واتصل بخدمة الحاكم بأمر الله . وما يزال يرقى حتى صار أميراً على البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر ثم ولي ديوان الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذاكرات أودعها كتابه «التاريخ الكبير » وهو أخبار مصر ومن حكمها من الولاة والأمراء والخلفاء . وما فيها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأشعار الشعراء وأخبار المغنين ، ومجالس القضاء . والحكام، والمعدلين ،

والأدباء . والمتغزلين ، وغيرهم وهو في ثلاثة عشر ألف صفحة .

ويدلنا هذا النص على أن المسبحي لم يهتم بالتاريخ السياسي فحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية . والاقتصادية ، ومن المؤلم أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم .

ولم يكن الأمير المسبحي مؤرخاً فحسب ، بل كان أديباً له ذوق فني ، واطلاع واسع في ميدان الأدب ، وله مؤلفات في هذا المجال منها : كتاب « التلويح والتصريح » في معاني الشعر . وله كتاب « الشجن والسكن » في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه . وله كتاب « جونة الماشطة » ويتضمن الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع . وله كتاب « الراح والارتياح » في وصف الشراب وآلاته . والندام عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الزهور والرياض والثمار والأشجار . وله كتاب « الفرق والشرق » وله كتاب الطعام والأدام في صفة ألوان الطعام . وما يقدم على الخوان ... إلى غير ذلك من الكتب التي فقدت ولم يبق إلاّ اسمها ، ويذكر أن المسبحي كان شاعراً رقيق العاطفة دقيق الحس ومن شعره في رثاء أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تقطعا
وفادحـــة لم تبق للعينِ مدمعـــا
أصبراً وقد حلّ الثرى من أوده
فللهِ همٌّ مـــا أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت قـــد متُّ قبلها
وإلاّ فليت الموت أذهبنـــا معا

ومن المؤرخين النابهين في ذلك العصر : محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي خدم في القضاء أوفد سنة ٤٤٧ هـ رسولاً من قبل الفاطميين إلى القسطنطينية للاجتماع بالأمبراطورة تيودورا وإصلاح ما فسد ولكنه لم يتوفق . له كتب عديدة في التاريخ : أهمها :

تواريخ الخلفاء ، وكتاب خطط مصر ، وغيرهما ولكن كتبه دثرت ولم يبق منها سوى الاسم ؛ ومن المؤرخين أيضاً ابن البطائحي ولكن لم يبق من كتبه شيئاً .

والحقيقة لم أجد أبلغ من قول الشاعر عمارة اليمني وهو يرثي الدولة الفاطمية . ويرثي ذلك العصر الزاهر :

أبكي على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحلِ

دار الضيافة كانت أنس وافدكم
والیوم أوحش من رسمٍ ومن طللِ
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورثّ منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمـــل
وأول العام والعيدين كم لكم
فيهنّ من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتزّ في يوم الغدير كما
يهتزّ ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشيٍ وفي شيةٍ
مثل العرائس في حليٍ وفي حلل

ولا بد لنا ، ونحن في طريقنا لإتمام الجزء الخامس الخاص بالخليفة العزيز من القول :

بأنه ظهر في ذلك العصر عدد من الأطباء الأعلام — والطب كان يعتبر علماً قائماً بذاته ، أو بلغة أصح هو فرع من الفلسفة. فقد كثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ، ومجادلاتهم .

وتسابقهم على الاختراع وإبداع الأدوية المفيدة للأمراض ، وكل هذا كان من أسباب ازدهـــار هذا النوع من العلم ، واتساع أفقه ، فكثرت التآليف حوله ، والتاريخ لم يغفل ذلك فقد ذكر :

ان الفاطميين قرّبوا الأطباء . وأغدقوا عليهم النعم ، والعطايا ، والمرتبات الشهرية،وقد يكون من أشهرهم في تلك الفترة « منصور بن مقشّر » النصراني الذي عرف بتفوقه في مهنته . وعلو كعبه في وصف العقاقير ، وكان الطبيب الخاص للخليفة العزيز بالله . وكان المعز لدين الله قد اصطنع لنفسه أيضاً الطبيب « موسى بن أليعازار » وكان عالماً بتركيب الأدوية، وطبائع المفردات وله كتاب « شراب الأصول » .

ووفد على مصر في عهد العزيز بالله « محمد بن أحمد بن سعيد التميمي » وهو من بيت المقدس . واشتهر بمعرفة خواص العقاقير ، وتركيب الأدوية ، وقد التقى بأطباء مصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بمن كانوا منهم قد جاءوا من المغرب في صحبة الخليفة المعز لدين الله إلى مصر ، ومن المعروف عن هذا الطبيب أنه صنّف بناء على رغبة الوزير يعقوب بن كلس كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سمّاه : « مادة البقاء ، بإصلاح

فساد الهواء، والتحرر من الأوباء » ولكن مع كل أسف فقد فُقد هذا الكتاب كما فُقد غيره من الآثار الفاطمية .

ومن أشهر الأطباء في ذلك العصر «سلامة بن رحمون» وكان يهودياً مصرياً . وأبو الحسن علي بن رضوان وهو مصري أيضاً ، وهذا الطبيب تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين . عاصر الخليفة العزيز بالله . وأدرك عصر الحاكم بأمر الله . فاستخدمه هذا الأخير ، وجعله رئيساً على الأطباء . وله مؤلفات قيمة ، ومباحثات دقيقة . وكتب عن جالينوس . وشرحها ، وجوامعها .

وذكر أن اليبرودي زار مصر بغية الاختلاط به للمناظرة . والمناقشة في المسائل الطبية .

وممن نبغ في الطب في ذلك العصر طبيب يهودي اسمه «افرائيم بن الزفان» . وأبو كثير بن الحسن بن إسحاق . وصنّف الطبيب أبو جعفر يوسف بن حسداي شرحاً لكتاب الإيمان من كتب أبقراط .

من هنا نستطيع أن نؤكد بأن هذا النشاط العلمي في مصر الفاطمية لم يكن له مثيلاً في بلد آخر . فمصر الفاطمية استطاعت أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية لا بل أن تسبقهم .

وتجلس على قمة مجد العلم والحضارة ، ولعلّ الفضل بذلك إلى الخلفاء الفاطميين الذين كانوا أوسع أفقاً ومداركاً من غيرهم في مجال الفكر ، وقد مرّ معنا أن مذهبهم نهض على أسس فلسفية فاستطاع أن يحقق النجاح المقرر له على ضوء المعرفة والمنطق والواقع .



فهرست المواضيع

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨ .

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية – حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢ .

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – حسن إبراهيم حسن ١٩٤٦ .

النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن – حسن إبراهيم حسن ١٩٣٩ .

عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٥ .

المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٧ .

كنوز الفاطميين – زكي محمد ١٩٣٧ .

تاريخ جوهر الصقلي – علي إبراهيم حسن ١٩٣٣ .

في أدب مصر الفاطمية – محمد كامل حسين ١٩٥٠ .

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق – محمد جمال سرور ١٩٥٧ .

مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧

مجموعة الوثائق الفاطمية – جمال الدين الشيّال ١٩٥٨ .

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية – محمد عبد الله عنان ١٩٣٧ .

نظم الفاطميين ورسوهم في مصر – عبد المنعم ماجد ١٩٣٧ .

السجلات المستنصرية – عبد المنعم ماجد ١٩٥٤ .

الإمام المستنصر بالله الفاطمي – عبد المنعم ماجد ١٩٦١ .

الحاكم بأمر الله المفترى عليه – عبد المنعم ماجد ١٩٥٩ .

نظم الحكم في مصر الفاطميين – مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨ .

سيرة جعفر الحاجب – و . إيفانوف ١٩٣٠ .

صلة تاريخ الطبري – غريب بن سعد – .

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة – الباقلاني ١٩٣٩ .

رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ (مخطوطة) بدار الكتب

عبقرية الفاطميين – محمد حسن الأعظمي ١٩٦٠ .

الصليحيون – حسين همداني ١٩٦٠

افتتاح الدعوة – النعمان بن حيون – .

المجالس والمسايرات – النعمان بن حيّون – .
الهمة في آداب أتباع الأئمة – محمد كامل حسين ١٩٥٠ .
عيون الأخبار – إدريس عماد الدين – .
فرق الشيعة   النوبختي
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – المقريزي .
نظام الوزارة في العصر الفاطمي – مقالة في مجلة الثقافة – جمال الدين الشيّال ١٩٥١ .
أصل الذمة في العصر الفاطمي – مقالة في مجلة المقتطف – جمال الدين الشيّال ١٩٤٥ .
البيان المغرب في أخبار المغرب – ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب – محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيره .
المنصور لدين الله – سيمون حايك ١٩٦٢ .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم – فوندر – ليدن ١٩٢٧ .
معجم البلدان – ياقوت الحموي .
تاريخ الرسل والملوك – الطبري .
تقويم البلدان – أبو الفداء .
كتاب البلدان – اليعقوبي .

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje) M.G

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : (Detremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis - Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942. W.Ivanow

A Guide to Ismaïli Literature:London,1933.W.Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

En Quête aux pays du Levant — « M. Barrès ».